النـــاب الأســــــود

رواية

الكاتبة:

وحي صالح مشهور

2019م

جميع الحقوق محفوظة لدى بوك تايم©

المؤلف: وحي صالح مشهور.

اسم الكتاب: الناب الأسود.

نوع الكتاب: رواية.

الناشر: بوك تايم.

تقييم: أ. ريما شكيب

مراجعة وتدقيق: أ. ريما شكيب.

مصمم الغلاف: وحي صالح مشهور.

تنسيق داخلي: مجدي عبدالله الردفاني

الطبعة الأولى: 2019م.

رقم الإيداع: (   )

يسمح بنشر أجزاء هذا الكتاب بأي أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين هاشتاج:

#الناب_الأسود.

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة الكاتبة.

إخلاء مسؤولية:

الآراء المنشورة بأسماء كاتبيها لا تعبر بالضرورة عن رأي دار **بوك تايم** ولا نتحمل أي مسؤولية مترتبة على محتوى ما يتم نشره.

طبع هذا الكتاب بدعم من بوك تايم

"أول متجر إلكتروني لبيع الكتب الورقية في اليمن"

للتواصل مع متجر بوك تايم:

Taw1410:

Taw13:

00967734854031:

إهداء:

إلى صديقي الذي لنْ يقرأ هذا الإهداء إلى أقرب إنسان عرفناه أنا وأمي ، إلى من عشقتُ طبعة قاع حذائه على التُّراب .

إلى خسارتنا الكبرى في الحياة .

إلى أبي...

رحمكَ الله، وجعل منزلكَ أعلى مراتب الجنَّة، وليعطِنا الله الصَّبر حتى بعد ثلاث سنوات مازلنا نبكي فراقك يا أبتي .

دعوتُ الله، وسأدعوه إلى يومي الأخير أنْ يجعل مستقرَّكَ الفردوس الأعلى منْ الجنَّة إلى أمي الحبيبة التي أتعبها الزَّمان كوني سعيدة، وابتعدي عمَّا ينغص حياتكِ ابتعدي عن ضغوط الحياة، وهمومها وأريحي أعصابكِ الثَّكلى، وأغمضي عينيكِ واستمعي إلى صوت البحر، فالحياة لا تستحق التَّفكير، والقلق يا حبيبتي.

إلى أهلي ، وصديقاتي ، وزميلاتي وزملائي في المدرسة الثَّانويَّة ، في الكليَّة أو العمل شكرًا لكم ، شكرًا على كل كلمة صباح الخير ، شكرًا على تعاونكم معي، ولو بِحمل كيس ثقيل صَعُب عليَّ حمله ، شكرًا على المشاكل التي

أوقعتموني بها؛ لأنَّها غذتني بجرعة منْ القوة، والصَّبر ، شكرًا لتواجدكم في حياتي بخيرها وشرِّها .

إلى مدينتي التي لم، ولن أعشق غيرها ما حييت إلى أمي الحبيبة عدن التي تشبه أمي في همومها، يكفينا تعبًا يا سيدتي انفضي ذلك الغبار، وطيري كالصُّقور الكهلة إلى أعالي الجبال الشَّاهقة، وحطمي منقارِكِ المعقوف، ومخالبكِ المهترئة، وانتفي ريشك الثَّقيل المحمَّل بالهموم، والوجع، وانتظري واصبري حتى ينمو ريشكِ، ومخالبكِ، ومنقاركِ؛ لتعودي شابة أجمل، قادرة على الطَّيران أعلى من ذي قبل.

تنويه:

جميع الشَّخصيات، والأحداث المذكورة في هذه الرِّواية هي من وحي الخيال، ولا تمتُّ إلى الحقيقة بشيء.

جلس منهكًا على حافة منحدر مطلٍ على مقبرة اليهود بظهر مبنى المحافظة، ناظرًا إلى العقبة، وهو يرتشف ما تبقى من قارورة ماء تبدو قديمة بعض الشَّيء، وقد بدأت خيوط الفجر تبزغ مبشرة بيوم جديد.

كان شعره شديد السَّواد، رمادي اللَّون مبعثرًا في كل الجهات فقد كان مكسيًّا بالتُّراب، وقد ضاعت شبه ملامحه، كان لونه رماديًا بالكامل بالإضافة إلى بعض من اللُّون الأحمر الدَّاكن موزعًا على جسده، وعلى أنفه، وذقنه، وأسفل عينه اليسرى التي كانت شبه مغلقة جراء ضرب شديد أفقده قواه.
كان شابًا في سن الخامسة والعشرين، رياضيّ الجسد؛ لكثرة السِّباحة يميل إلى الطُّول، خمريّ البشرة، وقد أحرق الشَّمس والبحر جبينه، ووجنتيه.

كان حاد الملامح، بارز الأنف، كثيف الحاجبين، غائر العينين، واسعتين يضيئهما اللَّون العشبيّ كانت عيناه ساحرتين، إلا أنَّهما لا يشيران للبراءة بشيء، بالرُّغم من خُلقه العالي، والمعروف بين النَّاس.

ظل منكسرًا ساكنًا لا يتحرك منه سوى ما يحركه الرِّيح من شعره، وبعض من قميصه شبه الممزق.

كان باله سارحًا بما حدث له، فقد طرده أحفاد الحاج صابر بعد وفاته بأيام فقط، طردوه من البيت الذي عاش به منذ نعومة أظافره، ذلك البيت الكبير

المشيَّد على أحد سواحل عمران الخلّابة الواقعة في محافظة عدن.

الحاج صابر هو ذلك الصَّياد العجوز الذي كان واسع الثَّراء إلا أنَّ عشقه للبحر لم يبعده عنه، فقد عشق الصَّيد كعشقه لعادل (بطل هذه الرِّواية) فقد أسماه بنفسه بعد ما توفّتْ والدته وهي تطلقه للحياة، حيث كانت تعمل لديهم من حين لآخر لتسدَّ رمق عيشها بعد أن تركها زوجها العربيد للفقر والعوز، فاستوصتْ ذلك العجوز بما في بطنها.

لم يخلف الحاج صابر وعده لها فأتمَّ وعده؛ ليربيه على الِّدين، والخلق فعلَّمه الصَّيد، والسِّباحة، وأدخله المدارس حتى أكمل الثَّانويَّة، ودخل كليِّة التِّجارة؛ لينهي فيها تعليمه بامتياز، لكن كلُّ العلومِ لم تكنْ كجلسات الحاج صابر، فقد كان رجلًا غاية في الحكمة، والحنكة، والرَّزانة فقد أسقى عادل كل هذه الخصال؛ بسبب ملازمته له أكثر من أحفاده المدلّلين الذين هم من صلبه، فلطالما لازمتهم شياطين الإلكترونيات، والألعاب، والاستلقاء أمام التّلفاز، ودلال آبائهم المفرط.

حط عصفور صغير بالقرب من عادل فقطع تفكيره الملبَّد، نظر إلى العصفور، وهو يثب بقفزات صغيرة باتجاه عادل، فغمغم قائلًا: ليس لديَّ ما أطعمك إياه، فأنا جائع مثلكَ.

اتّجه إلى كريتر – قلب مدينة عدن الجميلة – وبدأ يبحث عن عمل، ظلَّ يعمل باليوميَّة في مقهى بسيط في أزقة المدينة السَّاحرة ببساطتها المعهودة، ينظِّف المكان ويقدم القهوة والمشروبات.

في بادئ الأمر كان ينام في العراء، ثمَّ ما إن علم صاحب المقهى بأمره، حتى سمح له بقضاء نومه فيه.

مرَّت الأسابيع، والأيام، كان يذهب في الصَّباح الباكر في كل جمعة إلى قبر جَدِّه الحاج صابر، فيصبُّ عليه الماء، ويدعو له، وكعادته ذهب باكرًا إلى قبر جَدِّه، فجلس، ووضع كفّيه على الأرض الرَّطبة ناظرًا إليها، وقد خانته العَبْرة فقال : مجرَّدُ الشُّعور بأنَّك تحت التُّراب يصيبني بضيقٍ شديد... تنهَّد، واستطرد قائلًا: رحمك الله يا جدي يا من كفلتني، وربّيتني على جودك، وكرمك.

صمتَ قليلًا؛ ليتذكّر أواخر أحاديث جَدِّه، وهو على فراش الموت، وقد طُبِعتْ ملامحه في ذاكرة عادل.

كان رجلًا حنطيّ اللّون؛ بسبب كثرة الإبحار، والصِّيد، خشن الملامح، والبَشَرة، كثير التَّجاعيد، يبدو على قسماته الرِّضا بخطوط تنطلق من طرفِي عينيه راسمة ابتسامة دائمة على وجهه، ويكسو نصف وجهه شارب ضخم، ولحية كثيفة فلا يبدو من فمه سوى أسنانه اللّامعة كلما ابتسم، كان مرتَّب الهيئة، أبيض الشَّعر، والذِّقن.

تـذكَّر حديثـه عنـدما قـال لـه: سـيأتيكَ الـبلاء مـن حيـث لا تـدري، لكـنِّي أعلـم بأنَّكَ أقوى ممَّا تعلم، فأنتَ ولدي الذي أعتمد عليه، وسأعتمد عليه دومًا.

عاد من ذكرياته قائلًا: آآآه يا جدي...

لو تعلم ما أصابني، ذهبتَ، فذهب معك كل شيءٍ جميل.

يخلق من ظهر العالم فاسد

قَطع تفكير عادل صوتٌ غليظٌ ناداه من بعيد، كان عمه عفيف، أو بالأحرى الرَّجل الذي كان بمثابة عمه، الابن الثَّاني للحاج صابر كان في الخمسينيات من عمره، كان رجلًا يبدو متشدِّدًا في الدِّين، ذا لحية طويلة، وأنف معقوف للأسفل بعض الشَّيء، حليق الرَّأس بشكل مرتّب، معتدل الطُّول يميل إلى السُّمْنَة.

ناداه كمن ينادي أحد الخدم الذين كانوا يعملون لديه، لقد تعود عادل على ألا يتأخّر بالذَّهاب إلى أي أحد منهم مهما كانت معاملتهم له، فهو لا ينسى بأنَّهم أبناء ذلك العجوز الطَّيب، وكما يقال : (لأجل عين تكرم مدينة)

لكن هذه المرَّة كان الجرح عميقًا في قلبه، فقد ذاق معنى الذُّل يوم طُرد من البيت، فلم يرد على عفيف، وتجاهل ندائه تمامًا، ممَّا أرغم عفيف على القدوم إليه، والوقوف أمامه قائلًا بصوت غاضب: أينَ كنت؟

ردَّ عادل بمنتهى البرود، وهو معرض ببصره إلى اتِّجاه آخر، متجاهلًا إياه:

- ألم تطردوني من بيتكم فما الذي تريده الآن؟

أم أنَّك ستمنعني من زيارة قبر جَدِّي؟

ردَّ عليه عفيف بتهكّم :

- ليس بجدك...

هنا وقف عادل على قدميه بهمّة، واقترب من وجهه، ونظر في عينيه مباشرة، وقال بثقة، وبرود أعصاب:

- جدي ...

وأنا الذي أعرفه أكثر منكم جميعًا...

هل لك أنْ تخبرني كم مرَّة زرتموه؟

وهل يعرفه أبناؤكم جيدًا؟

كم مرّضة ترجّاكم، كي تقوموا بزيارته؟

لم يكنْ يراكم إلا مرَّة في العام كلِّه، ولو جئتم لا تحضرون سوى رغمٍ عنكم، ساعة، أو نصف، لتطيروا بعدها كالجراد هاربين!

متى كان لكم خير في ذلك العجوز المسكين؟

هل تعلمون متى كان ينام؟

ماذا كان يأكل؟

ما الذي كان يؤلمه؟

ممَّا كان يعاني؟

كم مرَّة نزلت دموعُه، وهو يرغب برؤية أحفاده؟

والآن تقول لي: بأنَّه ليس جدي!

هو جدي، وليس بوالدك.

طرفت عينا عفيف عدَّة مرات لثانيتين، ثم أعاد النَّظر إلى عادل، وأمسك بقميصه المهترئ قائلًا:

- لن أجادلك يا هذا فليس لدي الوقت لكلامِكَ التَّافه...

تعال معي الآن إلى البيت فلديَّ ما أقوله لك.

دفعه عادل بقوة إلى الوراء وهو يقول:

- لستُ عبدك يا هذا، تطردني، وتطلبني متى شئت.

ثم عاد للجلوس على الأرض ثانية، فنظر عفيف إليه بغضب، ورفع هاتفه النَّقال، وذهب بعيدًا، حتى لا يسمعه عادل.

بـدأ عــادل يـدعو لجَـدِّه، ليسـتوقفه أمـرٌ غريـبٌ، فعفيـف لم يـذهب، بـل ظـلَّ يتحـدَّث بانفعـال في هاتفـه، وهـو يـذهب، ويعـود، وقـد أبقـى عـادل تحـت ناظريـه يتفقَّده كل لحظة.

أصـاب عـادل الفضـول، فقـد كـان مراقبًـا طـوال الوقـت، مـر حـوالي ربـع سـاعة، وعفيـف مـا يـزال يتحـرّك ذهابًـا، وإيابًـا، وقـد أنهـى مكالمتـه، وكأنَّـه ينتظـر شـيئًا مـا، وقـف عـادل بعـد أن قـرأ بعـض مـن القـرآن الكـريم، والأدعيـة علـى جَـدِّه، لينطلـق ذاهبًا في حال سبيله، فاتّجه عفيف نحوه بسرعة قائلًا:

- إلى أين؟

ردَّ عادل بشراسة :

- ابتعد يا هذا؟

قطـع صـوت عـادل الجهـوري صـوت أقـوى، كـان صـوت محـرك سـيارة لانـد كـروزر، ضـخمة أصـابتْ المكـان بالغبـار الشَّـديد، نـزل منهـا رجـل مهنـدم، معتـدل القامة، والجسد، مرتَّب الشَّعر، حليق الذَّقن والشَّارب.

حــاول عــادل إزالــة الغبــار مــن أمــام عينيــه ملوحًــا بذراعــه محــاولًا معرفــة هــذا الشَّخص، وها قد بانتْ ملامحه، وهو يقترب منه.

لقـد كـان عاصـم، الابـن الثَّالـث للحـاج صـابر، أسـتاذًا جامعيًـا في كليَّـة الحقـوق، اقترب بابتسامة مزيَّفة قائلًا:

- كيف حالكَ يا عادل ؟

لقد اختفيتَ طويلًا، ثلاثة أسابيع، ونحن نبحث عنكَ.

لم يجد أي ردّ من عادل، ولا حتى من ملامحه، فقد بدا على قسماته الجمود، والبرود، وبعض الاشمئزاز.

شدَّ عاصم وجهه، وأكمل حديثه قائلًا:

- ما هذا؟

كم أنت أسود القلب!

أيعقل أنْ تأخذ ذلك النِّزاع على محمل الجِدّ؟

ردّ عادل بسخرية :

- نزاع؟

أتسمّي ضرب أولئك المرتزقة الذين أحضرتموهم لإخراجي من البيت نزاع؟

وأي نزاع؟

لم يكنْ هناك نزاع بيننا، لقد طردتموني كالكلب من المنزل، كان بإمكانكم أن تعطوني أسبوعًا واحدًا؛ لأغادر المنزل، وأعرف إلى أين سأذهب، لكنَّكم

هجمـــتم علـــيَّ كجـــيش ثـــائر، ولم تعطـــوني لحظـــة للتَّفكـــير فيمـــا علـــيّ فعلـــه. قاطعهما عفيف قائلًا:

- دعونـا نـذهب للبيـت، ولنتنـاول الغـداء معًـا، ونناقش هـذه المشـكلة، وسـنتفق بمـا يرضيك يا عادل. ردَّ عادل بعلو :
- اسمع يا هذا...

ليس بيني وبينكم أي حديث بعد اليوم، فابتعدا عن طريقي أوقفه عاصم قائلًا:

- أهكـذا علَّمـك أبي كيـف تتعامـل مـع مـن هـم أكـبر منـكَ سـنًا؟ ردَّ عـادل بغضب، وقد جزَّ على أسنانه قائلًا:

علّمني أيضًا أنَّ فقدان رأسي أهون عليَّ من فقدان كرامتي...

ابتعد. وأكمل مشيه ذاهبًا في طريقه.

نظر عفيف إلى عاصم قائلًا:

- ماذا الآن؟

أستتركه يذهب هكذا؟

أين وسائل الإقناع لديك؟

نظر عاصم إليه بسخرية، وهو يتذمَّر متمتمًا :

- كل هذا من مشورة أختك المجنونة التي لم تترك للصَّبي فرصة واحدة؛ ليتذكر لنا جميلًا واحدًا، وكأنَّه عظمة علقتْ في بلعومها، فلطالما كادتْ له، وما إن ماتَ والدكَ حتى هجمتْ عليه، ونحن نهرول وراءها كالأنعام.

نظر إليه عفيف بعصبيَّة: ماذا تعني؟

أسينسى كل ذلك الجميل، ويبيعنا بعد أن ربيناه، وعلّمناه؟

قاطعه عاصم :

- أبوك هو من ربَّاه وعلَّمه، أمّا نحن فلم نرضَ يومًا عن وجوده، ولطالما ضايقناه، وعاملناه، كالعبيد.
- والآن ماذا ؟

هل ستتركه يذهب؛ لنضيِّعه مرَّة أخرى؟ التفتَ إليه عاصم، ورد ببرود:

وهل تحسبني أبله لأتركه يختفي ثانية؟

لقد جعلتُ شخصين من أصدقائنا يراقبونه، ويتبعونه. هنا تنفس عفيف الصّعداء قائلًا:

- ولِمَ لمْ تخبرني بذلك سابقًا؟

تبًا لبرودِك يا أخي.

(الحياة الورديَّة باتتْ من ضرب الخيال، فحياتنا رماديَّة، بنيَّة، كلون التُّراب في الظهيرة، كحطام مبنى دمَّرته الحروب، كمساحات من الأطلال تصرخ منها الرِّياح؛ محتجة على حال تلك الحجارة المنسيَّة)

وحي

عقدة الشّرط عادل

عـاد عـادل إلى أزقـة كـريتر، وقـد لاحـظ وجـود سـيارة هونـداي صـغيرة، وقـد استنتج مباشـرة بأنَّهـا تابعـة لأبنـاء صـابر؛ لأنَّـه مـن الواضـح جـدًا بـأنَّهم أرادوا منـه شيئًا ما.

أصابه الفضول، لكنَّه سرعان ما قلّل من شأن الأمر، فلديه همومه التي تكفيه.

مـرَّت بضـع أيـام حيـث كـان يقـدم المشـروبات والشَّـاي للزَّبـائن، وقـد اسـتوقفه صـوت مـألوف نـادى باسمـه، نظـر باتجـاه الصَّـوت، فاجتاحتـه فرحـةً عارمـةً، لقـد كـان العـم مختـار صـديق جَـدِّه، ومعـه رجـل أربعيـنيّ سبق، وأنْ رآه سـابقًا برفقتهمـا، هـرول عـادل باتجاهــه، وقــد اسـتقبله مختــار بغبطــة شــديدة، فأحتضــنه، ووشوشــه في أذنــه بنوع من العتاب:

- هكذا تختفي عنِّي، وتخيفني عليكَ؟

ابتسم عادل، ثم قبَّل كتفه محاولًا الاعتذار له، فقال:

- أنا آسف، لقد كنت مصدومًا...

فقاطعه العم مختار بأنْ ضغطَ على يدّه، ثم قال:

انسَ، المهـم أنَّـك بخـير يـا ولـدي. ابتسـم عـادل، ثم صـافح الرَّجـل الغريـب، وقـد عرفه العم مختار لعادل بالأستاذ سيف.

قـدَّم عـادل لهمـا الشَّـاي، ثم رافقهمـا إلى بيـت العـم مختـار بعـد أنْ ألحَّ عليـه بقضـاء اللّيلـة عنـده، وقـد أعطـاه لباسًـا نظيفًـا مـن ملابسـه؛ ليرتـديها، شـعر عـادل بالخجل رافضًا، فصرخ فيه العم مختار مازحًا:

عيـب عليـك يـا عـادل فأنـا بمثابـة والـدكَ، أو جَـدِّك صـابر، مـع أنـي مـا زلـتُ شـابًا، فلنقـل بـأني كأخيـكَ الصَّـغير، فقهقـه عـادل ضـاحكًا بصـوته الجهـوري، فقـد كـان العـم مختـار في بـدايات السِّـتينيات مـن عمـره، وقـد سـرق مـرض السُّـكر سـنينًا أخـرى مـن عمـره، ففقـد نصـف أسـنانه، ونصـف شـعره، بالإضـافة إلى أنَّـه كـان نحـيلًا منحـني الظّهـر، كثـير التَّجاعيـد، أصـرَّ علـى عـادل بـأنْ يرتـدي ملابسـه النَّظيفـة بـدلًا عن ملابسه المهترئة.

بـدَّل عـادل ملابسـه بعـد أنْ أخـذ حمامًـا سـاخنًا، أخـرج مـا فيـه مـن تعـبٍ، وإرهـاق، فشـكر العـم مختـار علـى مـا أعطـاه مـن نعمـة، وراحـة، لم يشـعر بهـا منـذ وقت طويل، ثم سأله، وقد كانوا في وسط العشاء قائلًا:

- كيـف عرفـتَ مكـاني يـا عـم؟ نظـر العـم مختـار إلى الأسـتاذ سـيف ثم قـال موجهًـا حديثه لعادل:
- لقـد أخـبروني أبنـاء صـابر عـن مكانِـكَ، هنـا علقـتْ اللُّقمـة في حلـق عـادل؛ لـيرى العـم مختـار ممسـكًا بكـأس مـن المـاء، وقـد ظهـر علـى ملامِحـه بعـضُ القلـق، أخـذ عادل الماء من يده، وارتشفه، ثم قال ماذا يريدون الآن؟

تنفَّس العم مختار، ثم قال: اسمع يا بني، وأرجو ألا تقاطعني أبدًا، ظلَّ عادل ناظرًا إليه، ولم يقل شيئًا، لكنَّه أومأ إليه بالموافقة.

ابتسم مختار قائلًا:

- أولًا أنت تعلم بأنني أحبك كثيرًا، وأنا هنا لأجلك أنتَ، وهذا الرَّجل (مشيرًا إلى سيف) يرفض بأن يخبرني بما في جعبته، إلا أنّني أعرف الأمر بشكل عام، ولأبدأ الحديث معك، فهذا هو سيف المحامي لدى جَدِّكَ صابر.

نظر عادل باستغراب ثم قال: محامٍ؟

قاطعه مختار قائلًا :

محامٍ، نعم...

ابتسم سيف، ثم قال: اسمع يا عادل من المفترض أنْ نعقد جلسة؛ لقراءة وصيَّة الحاج صابر، إلا أنَّ شرط قراءتِها هو وجود جميع الأشخاص المذكورين، ومن ضمنهم أنتَ، وقد عطَّلنا اختفاؤك عن قراءتها.

ابتسم عادل، ثم ضحك من قلبه، حتى دمعتْ عيناه، فابتسم له العمّ مختار ابتسامةً خبيثة قائلًا:

- يبدو بأنَّ رزقك آتٍ يا بني.

ردَّ عادل، وهو يمسح دموع عينيه قائلًا :

- عن أي رزقٍ تتحدَّث يا عمّ، لقد أخذوا هاتفي النَّقال، ولمْ يتركوني؛ لآخذ كتبي، وأشيائي الشّخصيَّة...

أتعتقد بأنَّهم سيدعونني آخذ فلسًا منهم؟!

ثم أكمل بضحكة لاإراديَّة، وقد ملأته الحسرة...

ردَّ المحامي بعنف قائلًا:

أتعتقد بأنّني بائع خضار يا فتى ؟!

اسمع غدًا صباحًا سنجتمع كلنا في البيت.

صرخ عادل:

- أي بيت؟
- بيت الحاج صابر، وستأتي؛ لأنَّهم هم من يرجون حضورك؛ لأنّني لن أقرأ الوصيَّة إلا بوجودِكَ، وإلا لنْ يكون هناك إرث.

نظر عادل بخبث، ثم قال:

- حسنًا، أنا لن آتي، وليشربوا من البحر.

شدّه العم مختار من كتفه، ثمَّ قال أوَ تعتقد بأنَّك ستريح صابر بهذا التَّصرف؟

ثم نظر إلى المحامي قائلًا:

- اسمع يا سيف غدًا صباحًا سنكون عندكم في البيت

ردَّ عادل: أنا لن آتي.

قاطعه مختار متجاهلًا إيَّاه، وموجهًا حديثه للمحامي:

- سنأتي في الصَّباح، وهذا الفتى إن لم يأخذ بكلامي، فأنا بريء من معرفته، فإن لم يحترم طلب من ربَّاه كيف له أنْ يحترم كلمتي؟!

هنا انكسر رأس عادل اليابس، فما كان منه إلا أنْ نظر للأرض، وهو يحكّ رأسه، وقد فهمَه مختار، وابتسم ملوحًا بالرِّضا للمحامي سيف.

الثعلب العجوز

جاء صباح اليوم التّالي، وقد تلبّد بالغيوم المبشّرة بقدوم المطر، كان يومًا جميلًا، إلا أنّه كان مكهربًا، فقد وصلتْ أول زائرة قبل بضعة أسابيع، أي منذ وفاة صابر، وهي عفاف الابنة الكبرى، التي لطالما كرهتْ عادل، وعدّته دخيلًا عليهم، حتى لو لم يسكنوا معه، فكم مرّة كان يصيبها الوسواس بأنّه سيتلاعب برأس أبيها، ويسرق كل ممتلكاتهم.

قدّمتْ الإفطار لابنها حمدي، شاب عشريني نحيل طويل القامة قمحيّ البَشَرة، ضيّق العينين، طويل الأنف، رفيع الشّفتين، بدأ بتناول كوب الشّاي قائلًا:

- هل من الضّروري قدوم ذلك الدّخيل بيننا؟

واستطرد، يبدو بأنّ جَدّي قد جنّ؛ ليدخله معنا في التَركة.

صرختْ عفاف في وجهه:

- ولد!!

جَدُّك – رحمة الله عليه – كان رجلًا عاقلًا، ولكن يبدو بأن ذلك القدر قد تلاعب بعقله، مستغلًّا انشغالنا في أمور الحياة.

علّقت لينا قائلة:

نحن السَّبب يا أمي ... نحن من تركنا جَدّي لوحده، ولمْ نهتمّ لأمره.

ردَّت عفاف بغضب:

اصمتي يا بنت...

لينا هي ابنة عفاف الثَّانية في التَّاسعة عشر من العمر، طويلة، نحيلة، قمحيّة البَشَرة، ذات ملامح هادئة، ملامح اعتياديَّة، إلا أنَّ ذلك أعطاها نوعًا من الجمال البسيط النّاعم بنظراتها النَّاعسة، وهدوئها الغالب ...

وقفتْ؛ لتغادر الغرفة؛ محتجةً على صراخ والدتها بهدوء.

مع قدوم الخال عفيف، وزوجته سميّة وأبنائه: خديجة وعبد الصَّمد.

خديجة كانتْ في الثَّامنة عشر من العمر، سمراء البَشَرة، ذات عينين متوسطتين، وأنف معتدل مدبّب، وفم متوسّط، كانتْ مرحة بعض الشَّيء، وتميل إلى الهدوء، وبالطَّبع كانتْ تضع الجلباب.

قفزتْ لينا فرحًا ما إن رأتْها، واحتضنتها، فقد كانتا مقربتين من بعضهما كثيرًا، وإن لمْ تكونا تلتقيا إلا نادرًا.

نظر عبد الصَّمد إليهما قائلًا:

- حقًا؟

ألم تكونا مع بعضكما منذ حوالي أسبوعين أيام العزاء؟

رمقته خديجة بنظرة استغراب، ثم سحبت لينا قائلة:

- تعالي، ودعينا من هؤلاء الحاسدين.

رد عليهما حمدي قائلًا:

- وعلامَ نحسدكما؟

هيا اذهبا من هنا، وأنتَ تعال، وافطر معي

ردَّ عبد الصَّمد: لقد فطرتُ باكرًا.

كان عبد الصَّمد أسمر البَشَرة، متوسط الطُّول، نحيل، جاحظ العينين، معقوف الأنف كأبيه، وقد أطلق لحية خفيفة، مبعثرة بطول نصف إصبع.

جلس بحماس بجانب ابن عمته عفاف، وقال:

- ماذا الآن؟

ماذا نفعل مع ذلك الدَّخيل؟

ليس من حقه أن يرث معنا، فهو غريب في النِّهاية.

ردَّ عليه حمدي بغضب، وهو يرتشف الشَّاي، ناظرًا لعينيه: لن أدعه يهنأ بقرش واحد من إرث جَدّي.

- مؤكّد سنحاربه بكل الطُّرق، ثم سأله : ما رأيك ؟

أتعتقد بأنَّ النَّاب الأسود من الأساطير، أم حقيقة فعليَّة؟

- لو كان حقيقة، سنعيش فوق السحاب، لا أعتقد بأنَّه موجود بالفعل، ربّما ملكه أجدادنا منذ سنين طويلة، أما الآن فلا أعتقد بأنَّه... قاطعهما صوت حذاء كعب عالٍ.

كانتْ سمر ابنة العم عاصم، بيضاء البَشَرة، تميل إلى الطُّول، حادة الملامح، واسعة العينين والحاجبين، إلا أنَّها اتّسمتْ باللّؤم، والعناد، رمقتْ حمدي، وعبد الصَّمد بسخرية، وأكملتْ طريقها إلى الدَّاخل خاطبها حمدي قائلًا: وعليكم السَّلام... فاستدارتْ بكبرياء قائلةً:

- كنتُ سأسلِّم إلا أن وجه عبد الصّمد يبدو كوجه أمك يوم علِّمت بأنَّ لذلك الدَّخيل إرث معنا.

ردَّ عبد الصَّمد مزمجرًا:

- وكيف لا أغضب وابنة عمي تضع أحمر شفاه فاقع، وحجابها سيقع من رأسها، وحذاؤها تحت قدميها طابقين!!

شهقتْ سمر بصوتها الحاد:

- وما شأنك أنتَ؟

ردَّ عليها بغضب :

- أنتِ ابنة عمي، ومن حقي أن أقول ...

هنا اقتربتْ منه سمر مقاطعة إياه، وهي تصرخ:

- اسمع... ليس من شأنك أن تتدخّل في شؤوني، فأبي هو المسؤول عنّي فقط.

وقف عبد الصَّمد صارخًا:

أبوكِ ترك لكِ الحبل مرتخيًا، ولا يهمّه شيئًا. ثم صمتَ، وقد شعر بحركة من ورائه، وقد طغتْ رائحة الخمر، وبعض الدُّخان الممزوج بالحشيش على المكان، فالتفتَ؛ ليرى خلفه عمّه علوان الذي بدأ يصفّق، وهو واضعًا سيجارة مصنوعة يدويًا على فمه، وهو يقول:

- أحسنتما جدًا.

أنتما الاثنين كل مرَّة تقيمان حفلًا من الصُّراخ.

تبًا.

نظر إليه عبد الصَّمد باشمئزاز، وقال تاركًا المكان:

- كم أكره هذه العائلة القبيحة!

كلَّكم ذنوب...تبًا لكم جمعيًا.

نظر العم علوان لسمر مستغربًا، وقد ابتسمتْ له:

- أما زلت حيًا يا عمي؟

ظلّ ناظرًا إليها بعينين شبه مغلقتين، وحمراوين، وكأنَّه لا يراها أصلًا، فقد كان مخمورًا، ومخدرًا بشكل واضح.

العم علوان هو الأخ الأصغر، رجل نحيل الوجه والجسد، يميل إلى الاسمرار، وقد استنزفتْ صحته المخدِّرات، والخمور، فلا يمكنك أنْ تراه إلا مخمورًا، أو مخدرًا.

دخل عاصم بغضب:

- ألم يصل المحامي بعد؟

ردَّ عليه حمدي :

- ما زالت السّاعة التّاسعة، وهو قال بأنَّه سيصل في التَّاسعة، والنّصف.

لم يرد عليه عاصم فقد شدَّ انتباهه علوان.

نظر إلى وجهه قائلًا:

- ألم أقل لك ألا تتسمّم اليوم؟

واستطرد، وقد تعالى صوته :

كان عليك أن تكون صاحيًا اليوم يا علوان، ألا يمكنك أن تشعر ببعض المسؤوليَّة؟

نظر علوان إلى الخلف ثم أعاد النَّظر لعاصم قائلًا:

- أتحدثني يا هذا؟

هنا ضرب حمدي كفّه بوجهه، وهو يقول:

- لا تتعب نفسك يا عمي، أنا أساسًا لا أعلم كيف استطاع الوصول إلى هنا لوحده!!
- لقد أحضره العم مختار معه هو، و ذلك الفتى عادل.

قفز حمدي من كرسيّه، وقال بحماس: هل جاء عادل؟

- لقد جاء منذ حوالي ربع ساعة، وهما الآن في الخارج جالسان بالقرب من السَّاحل.

تأفّف حمدي بغضب، ودخل؛ ليخبر البقيَّة بقدوم ذلك الدَّخيل عادل.

وصل المحامي في السَّاعة التَّاسعة والنِّصف صباحًا، وقد اجتمعتْ العائلة بالكامل في الدِّيوان الكبير، وقد جلس المحامي سيف في رأس الغرفة، وانزوى عادل بالقرب منه، وبجانبه العم مختار الذي كان قلقًا، وقد تكهربتْ الأجواء من حول الجميع، هنا بدأ المحامي بفتح الوصيَّة التي كانتْ عبارة عن فيديو يظهر

العم صابر، وهو جالس على مكتبه، وقد بدا بصحة جيدة، وقد بدأ البعض يدمع لرؤيته، وكان عادل أكثرهم حزنًا.

بدأ حديثه بذكر الله، ثم حيّا أبناءه قائلًا: أبنائي، وابنتي الأعزاء : عندما تشاهدون هذا الفيديو، سأكون قد انتقلتْ إلى رحمة رب كريم...

مرَّ بعض الوقت، والعم صابر يقسِّم الثَّروة على أبنائه، وقد ارتسمتْ على وجوههم علامات الرِّضا.

فقد أعطى لكل شخص ما كان يريده، ويحبُّه، ويتناسب معه، فأعطى لعفاف محلين لبيع المواد الغذائيَّة، بالإضافة إلى أنه كتب لها بيته الكبير الكائن في المنصورة، فقد كانت أرملة.

وأعطى لعفيف معرض السَّيارات الذي كان بالقرب من ساحل أبين، وكتب لعاصم مستوصف كان يمتلكه في كريتر، وكتب لعلوان سوبر ماركت كبير في الشَّابات خور مكسر، ثم قال: أرجو وأن تتحمل يا سيف أمر إيجار السُّوبر ماركت لعلوان، وأرجو أن يصحو لحياته التي يضيعها هباء.

بالإضافة إلى أنَّه وزع عليهم مبالغ ماليَّة كبيرة، ثم قال: بالنِّسبة لعادل ... هنا تبادل الكل النَّظرات فيما بينهم، وانتبه الجميع للشَّاشة بقلق.

فاستطرد الحاج صابر بالقول: لقد كتبتُ له قارب الصَّيد الكبير، وها أنا ذا قد أتممتُ عليكم كل ما أملك، ولكن بشرط واحد...

هنا صرخ حمدي بصوت حاد: ماذا عن النَّاب الأسود؟ فرفع عادل رأسه، وتبادل الكل النَّظرات، ليوافق عبد الصَّمد حمدي قائلًا : نعم، أهو حقيقة أم أنَّه كما يقال من الحكايات الوهميَّة ؟

أوقف المحامي عرض الفيديو، ووقف مطّلعا على الجميع، ثم قال: أنا لا أعلم شيء سوى تقسيم الوصيَّة كما يأمرني الحاج صابر، وحسب.

فقالتْ عفاف: كيف ؟ ألست محامي أبي؟

فوقف عاصم قائلًا: يا جماعة...

لا أحد يعلم إن كان النَّاب الأسود حقيقة، أم خيال، ودعونا نكمل الفيديو، فربَّما يذكر أبي شيئًا عنه.

فوافقه عفيف، وطلب من المحامي إكمال عرض الفيديو، وقد بدأتْ عليهم ملامح الاسترخاء بالرّغم من عدم ذكر النَّاب الأسود؛ لأنَّ صابر أعطى لعادل قاربه القديم فقط، فلنْ يشاركهم في أموالهم، كان قاربًا كبيرًا إلا أنَّه لا يهمّهم في شيء، كان الكل سعيدًا بما كسبوه، أما عادل فلمْ تبدو عليه أي ردَّة فعل، فقد بدا بأنَّه ينتظر ذكر شيء ما أيضًا، نظر المحامي لعادل، ثم قال: هل أكمل عرض الوصيَّة، أم أنَّكم بحاجه لبعض الوقت؟

وافق الجميع بحماس ثم أعاد سؤاله لعادل: هل أنت جاهز يا فتى؟

نظر إليه عادل بعينين متّسعتين، ووجه متبلِّد.

نادتْ عفاف بصوت منفعل: ماذا؟

أنجلس بانتظاره حتى يتكرَّم، ويسمح لكَ بالحديث ؟

التفتَ المحامي قائلًا :

- عادل وريث مثلكم، ومن حق كل شخص أن يتهيَّأ؛ لإكمال الفيديو، إنَّها وصيَّة الحاج صابر...

هنا سُمع صوت خافت، وهو يتمتم بالضَّحك: وريث هههه.

كان ذلك هو حمدي، انفعل العمّ مختار، فأمسكه عادل قائلًا: أكمل يا سيف كلنا جاهزون.

هنا فتح المحامي الفيديو مكملًا إياه، بدا في الفيديو الحاج صابر، وهو واضعًا ذراعيه على مكتبه، وما إن قال بأنَّ لديه شرط واحد حتى تبدَّلتْ ملامحه الرَّضيَّة إلى بعض الخبث، وقد أعاد ظهره للوراء، وأرخى جسده، ووضع ذراعيه على راحتي كرسيّه المريح قائلًا:

أبنائي، وابنتي الأعزاء: إن أردتُّم استلام نصيبكم بالكامل، فعليكم أن تنفذِّوا هذا الشَّرط، وأن من لا يقوم بتنفيذ شرطي هذا، فهو متنازل عن نصيبه لعادل.

هنا بدأتْ الأصوات بالتَّعالي في الغرفة، أوقف المحامي الفيديو قائلًا: سكوت...

صمتَ الجميع بوجوه شاحبة، ومتسائلة، صمت المحامي للحظات، وقد نظر للجميع، ثم شغَّل التَّسجيل ثانية.

أكمل الحاج صابر حديثه قائلًا : أعرف بأنَّ شرطي لن يعجبكم، لكنَّني لم أعرف كيف أربّيكم، فقد جنتْ عليكم أمكم (رحمها الله وسامحها) بعد أنْ أبعدتكم عنِّي، تنفَّس الصُّعداء ثم استطرد قائلًا : على كل الورثة، أنتم، وأبناؤكم وبناتكم أن تمكثوا في بيتي هذا الذي لم يعجبكم يومًا لمدة عام كامل، ويمنع منعًا باتًا المبيت خارج هذا البيت، لقد بنيته كبيرًا ، ووزعتُ الغرف لكلّ عائلة فيه، آملًا في أن تزوروني، لكنّني لم أستطع إرغامكم على زيارتي حتى في مرضي؛ لذا اليوم ستتحملون أمري، ليس لأجلي، بل لأجل المال، فلطالما أحببتموه، أمّا بالنِّسبة لعادل فأرجو يا بني ألا ترفض طلبي، فهو أثقل ممّا تتوقع بكثير، وبالرّغم من ثقله فأنا أعلم بأنَّك قادر على تنفيذه، فأنتَ ولدي الذي حملتُه، وربيّته بذراعيَّ هاتين، وأنتَ أطيب النَّاس خلقًا...واستطرد مكملًا حديثه قائلًا : ابني عادل نفذّ ما أطلبه منكَ، ليس لشيء، بل بحق مكانتي عندك، وحبّي لكَ، وتعبي بأيام راحتك ومرضك.

امتلأتْ عينا عادل بالدُّموع، فمسحها بسرعة خاطفه؛ كي لا يلاحظه أحد إلا أنَّ الجميع كانوا ينظرون إليه.

أكمل صابر حديثه: ليس لأي أحد فيكم الحق بأنْ يأخذ إرثه لمدة عام من تاريخ عرض الفيديو، فعادل هو الوصيّ الوحيد على أموالكم جميعًا طوال هذه المدّة، وهو المسؤول الوحيد عن شؤون هذا البيت.

كما وأنَّ من يحتجّ على ما سأقوله أو لا ينصاع لأوامر عادل، فقد تنازل له عن ربع إرثه، فعادل قادر على إصدار الأوامر، وغرفتي من نصيبه، يفعل بها ما يشاء، ولقد كتبتُ له بيتي الكبير الواقع على ساحل عمران، كتبتُه باسمه؛ لينفذ ما أريده منه، وأطلب منه أن يتركه مفتوحًا لعائلتي، فهو الوحيد الذي لن يبيع البيت، وإن طلبتُ منه شيئًا، سينفّذه بحذافيره.

وفي الأخير أنا أعلم بأنّي قد أغضبتكم، لكنَّها فرصتي لتربيتكم كما رغبتُ.

بدأتْ الأصوات تعلو بالغرفة، ليتصاعد صوت المحامي قائلًا: من الذي لم يعجبه حديث الحاج صابر رحمه الله عليه؟

هنا صمت الجميع بقهر شديد، وقد بانتْ عليهم علامات الغضب الشَّديد، وقد بدأتْ عفاف بإسقاط دموعها بالفعل.

وقف عفيف، وصرخ:

هذه مهزلة، ليقاطعه ابنه عبد الصَّمد صارخًا: أبي...

عفــوًا أيهــا المحــامي، أرجــو ألا تــدوِّن شــيئًا، فــنحن مصــدمون قلــيلًا.

وقـف عـادل، واسـتأذن مـن المحـامي، والعـم مختـار بـالخروج، فلحـق بـه المحـامي إلى خارج البيت، وأمسك بذراعه، ثمّ همس في أذنه:

- يقول لكَ العمّ صابر: اذهب إلى المخبأ لوحدك.

نظـر عــادل إلى عيــني المحــامي ســيف بعينــين مــذهولتين، ثمَّ انصــرف بصــمت.

لا تيأس...

فإنْ باعك العالم كلُّه

قد يشتريك حتى من هم تحت التَّراب!

وحي

المخبأ السري

صعد عادل على ظهر القارب الكبير بعد حوالي ساعة واحده فقط من مشاهده الوصيَّة، فقد امتلأ رأسه بالأسئلة التي أصابته بالجنون، لكنَّه صُدم؛ لرؤية القارب، وقد بدا وكأنَّه تم تفتيشه بهمجيَّة سابقًا، نظر هنا، وهناك، وهو يبحث عن أي كاميرا، أو أي وسيلة تجسّس، فهو يعرف طباعهم جيدًا، ثمَّ رتّب القارب ثانية؛ ليقف على مقود القارب، وقد جنَّ جنونه، وهو يتساءل في نفسه: معقول أنْ يكون جدي يفضِّلني على أبنائه لهذه الدَّرجة؟ !!

أبحر بعيدًا؛ ليصل الى إحدى الجزر الصّغيرة الخلابة التي تعوَّد هو وجده التِّرحال إليها، فنزل عن القارب، وذهب إلى كوخ جَدِّه الذي لا يعرفه أحد سواهما، كان كوخًا بسيطًا جدًا، كأكواخ الصَّيادين، وباستطاعة أي أحد النَّظر للدَّاخل، ورؤية كنبتين، وبعض الأواني المرتَّبة، وبساط كبير محاك من القشّ على الأرض التَّرابيَّة، لكنَّه لم يكنْ كوخًا عاديًا، فقد كان مقفلًا.

كان للكوخ ساس عميق يصعب الحفر من تحته، أمّا نوافذ الكوخ كانتْ مصنوعة من قضبان حديديَّة ملبَّسة بالخشب، وبالرُّغم من أنَّ الكوخ كان يبدو خشبيًا من الخارج والدّاخل، لكنَّه كان مصنوعًا من قضبان حديديَّة مشبّكة، ومخفيَّة بين ألواح الخشب.

دخـل عـادل إلى الكـوخ بعـد أنْ تأكَّـد بأنَّـه لوحـده في ذلـك المكـان، فـأغلق على نفسـه، وأنـزل شراشـف النَّوافـذ الـلّاتي تعمَّـد هـو وجَـدُّه تركهـا مفتوحـة؛ كـي لا يصيب أحدً الفضول هذا إنْ أتى أحد.

كانـت جزيـرة شـبه معدومـة مـن النَّـاس، فوقـف متـأملًا إحـدى الكنبتـين الـتي تعـوَّد الحـاج صـابر الاسـترخاء عليهـا مـن وقـت لآخـر، وقـد خانتْـه دموعـه، انحـنى وشـدَّ الفـراش مـن عليهـا، ورمـاه جانبًـا، ثم أمسـك بطـرف اللّـوح الخشـبيّ الـذي يحمـل الفـراش، و رفعـه، وإذا بـه يظهـر كبـاب حديـديّ، فتحـه بمفتـاح، فبـدتْ مـن ورائـه سـلالم متَّجهـة للأسـفل بعمـق مـترين تقريبًـا، نـزل عـادل بسـرعة، حيـث يظهـر بأنَّـه يعـرف هـذا المخبـأ جيـدًا، فهـبط إلى غرفـة صـغيرة الحجـم، وأشـعل ضـوءًا صـغيرً كـان معلقًـا بـالأعلى، جلـس على الأرض بجانـب صـندوق حديـديّ، مقفـل، مثبّـت علـى الأرض فمـدَّ يـده للأعلـى بـين خبايـا السُّـلم الصَّـغير مـن الخلـف؛ ليخـرج مفتـاح فقـل الصُّـندوق الحديـديّ، ففـتح الصُّـندوق، وعقـد حواجبـه مسـتغربًا فقـد كـان لا يوجـد بـه سـوى حقيبـة بلاسـتيكيَّة، أخـذها بذراعيـه وهـو يقلبهـا يمنيًـا، وشمـالًا، فقـد كانـتْ شفّافة، ويبـدو منهـا مـا بـداخلها، كـان ظـرف، وكـيس أسـود، مخملـيّ صـغير، مـزَّق الحقيبـة البلاسـتيكيَّة، وأخـذ الظّـرف، وفتحـه، وإذا بـه رسـالة مكتوبـة مـن صـابر، وفلاشـة ميمـوري تشـبه الـتي عـرض عليهـا المحـامي الوصـيَّة، فـتح الرِّسـالة الـتي كتـب عليهـا: بـني الحبيـب ادعُ لي فأنـا الآن في رحـاب ربٍ كـريم، نظـر عـادل إلى الأعلـى بحـزن شـديد، ودعـا لـه بالرَّحمـة، والمغفـرة، ثمّ تنهّـد بصـعوبة، وأكمـل الرِّسـالة

التي أشار صابر فيها إلى وجود الفلاشة بداخل الظَّرف، ثمّ أكمل عادل قراءة الرِّسالة بأنَّ له الحريَّة الكاملة بالتَّصرُّف بما في الكيس المخمليّ، فهو له...

جنَّ جنون عادل، فوقف صارخًا: كيف ؟!!!

كيف تعطيني كل هذا يا جَدّي...

أتحبُّني إلى هذا الحدّ؟

وكيف آخذ هذا الكيس ؟! إنَّه ليس من حقي يا جَدّي!!!

لكن استوقفته جملة في الرِّسالة كتب عليها الحاج صابر (ستعلم في نهاية هذا العام بأنَّك تستحق ما أعطيتكَ إياه، وأنَّهم لا يستحقوه؛ لتَّأخذه دون أن تشعر بالذَّنب، أو ستنجح في مهمتك، وتعطيهم بعض ممّا أعطيتكَ إياه، ولا تنسَ إنْ وقعتَ في مأزق أو احتجتَ لبيع شيء فتواصل مع صديقي "مستر جورج" فقد وعدتُه بكلمة شرف إنّي لنْ أبيع إلا له، فهو سيقاتل؛ للحصول على ما لديك، وإنْ فكَّرتَ بالبيع لغيره، فأنتَ مقتول لا محالة، وتذكَّر بأنَّ ما ستفعله لي سيصبُّ في ميزان حسناتك يا بني).

كما كان آخر ما كتب بالرِّسالة: بأن يتخلَّص عادل منها، ويمزِّقها، ويخبئ الفلاش ميموري في جيبه، ويخبئ الكيس المخملي في مكانه، حتى يحتاجه منهيًا كلامه بـ: أنتَ ذهبتَ كما أتيتَ يا عادل.

فأعاد كل شيء إلى مكانه، وقبل أنْ يخرج من الكوخ، وقعتْ عيناه على صندوق تعوَّد أن يضع به كلَّ ما يحبّه منذ صغره، حيث كان موضوعًا على أحد الرُّفوف في الكوخ فأمسك به، ونظر إليه، فقد كان به بعض رسماته، وأشياء ليس لها قيمة سوى أنَّها من الذِّكريات الجميلة، وما إن نظر إليها حتى تلاشتْ همومه بابتسامة عريضة، فمدَّ يده، وأخرج وردة بهتَ لونها، وقد تيبَّستْ، وتآكلتْ بسبب عوامل التّعرية، نظر إليها لوقت طويل، وكأنَّه كان ينظر إلى قطعة من الجنّة، أمسك بها برفق حتى لا تتفتّت بيده، وظلّ ينظر إليها بشغف، ثم أغلق الصّندوق؛ أعاده ليبحر عائدًا إلى البيت .

وما إن رسا القارب، حتى نزل عنه، وهو يصارع بأقدامه أمواج البحر حتى سمع صوتًا يشتمه من بعيد: عادل أيّها الجبان السَّخيف.

نظر ناحية الصَّوت، وقد تعرَّف إليه، كان صديقه المقرَّب خالد، فتى عشرينيّ، أسمر البَشَرة، طويل القامة، حليق الرَّأس، بارز الملامح، اقترب منه، وقد بان على قسمات صديقه الغضب، فارتفع صوته مزمجرًا:

- كيف تختفي هكذا دون أن تعلمني بمكانك؟

لقد قلقتُ عليكَ، وبحثتُ عنكَ في كل مكان، أين كنتَ؟

ردّ عادل متنهدًا بانكسار:

- لم يكن بمقدوري البقاء في مكان أهينتْ فيه كرامتي.

اقترب منه خالد:

- وماذا عن مكالمة هاتفيَّة؟

أم أنّها لم تخطر على عقلك النَّير؟

لقد أخذوا هاتفي، وأنا لا أتذكَّر رقمك يا خالد، وكفَّ عن التَّذمر، وكأنَّك زوجتي.

ردّ خالد ممازحًا

- تزوَّجتَ، ولم تعزمني؟

دفعه عادل متململًا :

- كفاكَ مزاحًا يا رجل.

- أنا لا أمزح، كيف تنسى رقم صديقك الوحيد؟

فأمسك عادل بقميصه فقال بخبث :

- إذًا قل لي...

كم رقمي يا خالد ؟

هنا ابتسم خالد، ثمّ صرخ مهللًا، وهو فاتح ذراعيه في الفضاء : الحمد لله على سلامتك يا رفيق الدّرب.

مـرَّ حـوالي نصـف سـاعه علـى لقـاء عـادل بخالـد، وباسـتطاعتك أنْ تراهمـا يجلسـان علـى الشَّـاطئ، وقـد رمـى خالـد بجسـده علـى الرِّمـال، وهـو يقهقـه بعلـو صوته، وقد وضع عادل كفَّه على فم خالد...

- أشـش... اخفـض صـوتك، سيحسـبونني أسـتهزئ بهـم الآن، وأنـا لا أريـد شجارًا، ومشاحنات بيننا فجميعنا مرغمون على البقاء معًا لعام كامل .

تنفَّس خالد بعمق، ثمّ رفع جسده عن الرِّمال...

- أتعلم ؟

لقد أبهرني ذكاء جَدِّك يا عادل!

أعاد لك كرامتكَ، وكأنَّه يعلم ما سيحدث .

- مؤكد، فهؤلاء أولاده، يعرفهم كما يعرف نفسه .
- حسنًا لديَّ سؤال...

لقـد قلـتَ لي بأنَّـه عنـدما تحـدَّث في الفيـديو قـال: بأنَّـه سـيطلب منـكَ شـيئًا ثقيلًا فما هو طلبه ؟

صـمتَ عـادل، فهـو لمْ ولـنْ يخبره عـن المخبأ، ولاعـن الفـلاش ميمـوري الـتي لا يعلـم مـا بـداخلها بعـد، فهـو لا يفعـل شـيئًا يخـالف رأي جَـدّه أبـدًا، لكنَّـه اكتفـى بالابتسام لخالد، هنا نظر خالد في عيني عادل قائلًا:

- أهاا ...

وهـذا فصـل جديـد مـن فصـولكَ الغامضـة يـا عـادل، ، لـنْ تخـبرني الآن بمـا في رأسك السَّميك، حتى لو وقفتُ على رأسي .

باسـتطاعتكَ أن تـرى أسـنان عـادل كاملـة، وهـو يـومئ لخالـد مؤيـدًا كلامـه.

فجـأة استدار عـادل، فقـد سمـع قـدوم أحـدهم مـن خلفـه، فقـد كـان العـمّ علـوان قادمًا بعينيه التَّائهتين، سلَّم على خالد، وعادل ثمَّ قال :

أعتقد بأنّك سترثُ كل شيء عندما يقرأ علينا المحامي الوصيَّة .

فالتفتَ خالد لعادل متسائلًا :

ألم تقل لي بأنَّ المحامي قد انتهى من عرض الوصيَّة ؟

صـمت عـادل، وأشـار لخالـد بـأنَّ العـم علـوان لـيس في وعيـه، ، فابتسـم خالـد، وقد وضع عادل كفَّه على كتف خالد ثم قال :

- أرجو بأن تحضر لنا برادًا من القهوة الثّقيلة من البيت يا خالد.

فألقى خالد نظرةً خاطفةً على العم علوان، ثمَّ أعاد النَّظر لعادل، وقال :

أها...

حسنًا، قهوة ثقيلة على مزاجكما.

في هـذه الأثنـاء كانـتْ عفـاف تجلـس في الـدِّيوان، وقـد ربطـت رأسـها بقطعـة قمـاش كبـيرة، و وضـعتْ كفّيهـا علـى رأسـها، وهـي تلـوِّح بـه يمينًـا، ويسـارًا، نظـر عفيف إليها بشفقة قائلًا:

- كفاك تعذيبًا لنفسك، ستصابين بالمرض .
- اصـمتْ يـا عفيـف، فـأبوك قتلنـا جميعًـا بوصـيَّته هـذه، وأنـا الـتي كنـتُ أحسـبه أحكم الرِّجال!!

لقد جُنَّ قبل أنْ يموت...

هنا صرخ عفيف في وجهها:

- إن كنتِ غاضبة، فهذا من حقكِ، لكن لا تشتمي أبي، وهو في قبره .

لقـد ظلمنـا بفعلتـه هـذه، أتعلـم لـو كـان النَّـاب الأسـود موجـودًا بالفعـل، لأهـداه لعادل عن طيب خاطر.

ردّ بغضب :

- أولًا لا تقولي ظلمنا، فهو في قبره يحاسب فادعي له بالرَّحمة.

ثانيًـا .. كلنـا نعلـم بـأنَّ النَّـاب الأسـود روايـة قديمـة ربّمـا كانـتْ واقعيّـة منـذ زمـن طويـل في العائلـة، استوقف حـديثهما عاصـم عنـدما دخـل إلى الـدِّيوان، وهـو يقـول يجـب أن نـذهب إلى بيوتنـا؛ لإحضـار مـا سـنحتاج إليـه لبضـع أيـام ريثمـا نفكِّـر فيمـا

نحن فاعلون، ولا يجب على أي أحد المبيت خارج هذا البيت ابتداءً من اليوم فقال عبد الصَّمد متسائلًا:

- ماذا عن الأحفاد، أيجب أن نبيت معكم أيضًا ؟

ردّ عاصم : طبعًا، فقد جمعكم أبي معنا في الشّرط.

هيا فالوقت يداهمنا، وأنا ذاهب إلى البيت لإحضار ما يلزمني أنا وابنتي قاطعته سمر بمنتهى العصبيَّة، وهي قادمة من غرفة أخرى، أنا لن أعيش هنا عامًا كاملًا، لن أبيت أصلًا هنا.

فصرخ فيها عاصم مزمجرًا :

اصمتي .. فهذا أمر .. ليس بيد أحد فينا، وأنا لن أضيِّع فلسًا واحدًا بسبب دلالك... ستبيتين هنا رغمً عنك . دمعتْ عيناها، وهي تتذمر:

- لدي جامعة.
- سأخصَّص سيارة تأخذك، وتعيدك من وإلى الجامعة .

حين توجِّه بصرك إلى شاطئ بحر عمران الخلّاب، ورؤية عادل، وخالد يتأمّلان علوان بفضول بعد أن شرح له عادل ما فاته من عرض الوصيَّة عندما كان مخمورًان فنظر لعادل قائلًا :

- أتحسبني لا أتذكر شئيًا ؟

لقد فاتتني بعض الجمل فقط، قلتَ لي لم يمنحك سوى القارب ورعاية البيت ؟

صمت عادل محاولًا إيجاد مخرجًا، لينقذه عاصم وهو قادم من البيت مع عفيف، وحمدي، وعبد الصَّمد .

صرخ عاصم :

- علوان .. متجاهلًا وجود عادل، وخالد

ردّ علوان محتجًا :

- ماذا دهاك؛ لتصرخ هكذا؟

من أول كلمة صراخ ؟!

انتظر حتى أجيبك أولاً يا أخي.

اقترب عاصم متفحصًا علوان، وقد أصابه الذُّهول هل أنتَ صاحٍ يا علوان؟ ردَّ علوان، وهو يحكّ رأسه :

- لقد أعطاني عادل بعضًا من القهوة الثّقيلة.

أصاب الجميع الذُّهول، وفجأة صرخ عفيف من الخلف

- بركاتك يا عادل

ليستدير عاصم، ويرمقه بنظرة لم تعجب عفيف فصمت.

ذهب الإخوة الثَّلاثة، أبناؤهم؛ لإحضار بعض المستلزمات للبقاء في بيت صابر، حتى يستطيعوا ترتيب أمورهم، وقد طلب عادل من خالد بأن يعيره جهاز الحاسوب المحمول الخاص به لهذه اللَّيلة، ولمْ يسأله خالد لماذا، فقد كان يعلم بأنه لنْ يخبره إلا بما يرغب إخباره به، فودعا بعضهما بعد أن تناولا الغداء في بيت خالد .

ذهب عادل للقارب، وصعد على متنه بعد الغروب؛ ليفتح جها الحاسوب، وقد أراح جسده على ظهر القارب، وأخرج الفلاش ميموري ويداه ترتجفان:

- ماذا تخفي الآن يا جَدّي ؟

كان العم صابر يجلس على مكتبه، لكن هذه المرّة كان مبتسمًا، وسعيدًا، وناظرًا إلى الكاميرا بحماس، فقال: كيف حالك يا عجل؟

هنا ضحك عادل، حتى لم يستطع التّنفس، وكأنَّه وجد مخرجًا بسيطًا للهرب من واقع مليء بالهموم، والمشاحنات كما أنَّه شعر بشيء من الأنس الكاذب، وكأنَّ صابر لم يمتْ.

شعر بالدِّفء بالرّغُم من أنَّه كان لوحده، وسط البحر، وقد بدأ اللّيل يرخي ستاره.

استطرد صابر قائلًا :

بنيَ الحبيب عادل لقد أعطيتك الصّلاحيَّة الكاملة في تربية أبنائي، وأحفادي الذين لم أعرف كيف أربيهم، لديكَ عام واحد، وفي نهايته يجب أن يكونوا يدًا واحدة، يحبون بعضهم، ويخافون على بعضهم البعض، استخدم القوة التي تناسبك، أثِّر فيهم، حتى لو قسوتَ عليهم .

المهم أنْ تحقِّق حلمي، وهو أن تجعل أبناء، وأحفاد آل صابر عائلة واحدة (عائلة صابر)... وكما أخبرتك في الرّسالة (هذا العام ستعلم في النِّهاية بأنَّك تستحق ما أعطيتكَ إياه، وأنَّهم يستحقوه معك، أو لا يستحقوه أبدًا، لتأخذه دون أن تشعر بالذّنب.

وتذكّر بأنَّ ما ستفعله لي سيصبُّ في ميزان حسناتك يا بني، أنا أثق بدهائكَ وعقلكَ الكبير، ولا تنسى بأن تكن حذرًا فقد يكيدوا لكَ.

بالرُّغم من أنيّ لا أعلم إلى أي مدى هم غاضبون الآن والى أي مدى سيغضبون أكثر، لكن في النَّهاية تخلَّص من أي أثر يوحي بأنيّ كنتُ أحدِّثك.

عندما يقع الثور

باستطاعتكَ الآن أن ترى قمرة قارب الصِّيد يُفتح، وقد خرج منه عادل بعقل مشغول، جلس على الأرض ثم ألقى بظهره مستلقيًا على ظهر القارب، ناظرًا إلى السَّماء.

لم يكن وجه السَّماء صافيًا؛ ليرى عادل النُّجوم، فلقد حجب جمالها الغيم.

أغلق عينيه بهدوء، ثم عقّد حاجبيه، وكأنَّه بدأ يفكر في شيء ما، يبدو بأنَّه قد بدأ يرى شيئًا، شيئًا سيئًا، فقد ازداد تعقُّد جبينه، وقد اقترب حاجباه من بعضهما أكثر...

هل انتابك الفضول ؟.. إذًا اقترب أكثر، ولندخل إلى تفكيره. يبدو بأنَّه لا يفكر، بل أعاد ذاكرته إلى الوراء، إلى ما قبل خروجه من المنزل.

باستطاعتكَ الآن أن ترى ما يراه، وأن تسمع أصوات صرخات تزداد، وتقترب من بعيد، وقد كان الوقت متأخرًا من اللّيل، تعالتْ الأصوات :

- عادل...أين أنت؟

كان نائمًا، وقد حاول استيعاب تلك الأصوات، وفجأة كُسر باب غرفته؛ ليقفز من هول الصَّوت، حاول أن يستجمع حواسه، ويفهم ما يدور حوله، إلَّا

أنّ ذراعًا أمسكتْ قميصه من الخلف، وشدّته نحو الأرض؛ ليقع مرميًا وسط كثير من الأسئلة، ماذا هناك؟

- ماذا يحدث ؟

مَن ؟

أُشعلت الأضواء، وقد حاول النَّظر للأعلى لم تسعفه عيناه فقد كانتْ الأضواء قويَّة على شخص كان نائمًا في الظَّلام، رمشتْ عيناه عدَّة مرّات، وقد نظر يمينًا، ويسارًا، ثم رأى أناسًا غرباء يحملون عصيّ، وأسلحة بيضاء كان المنظر لا يطمئن، فقد كان واضحًا بأنَّهم مرتزقة، أو كما نطلق عليهم في زمننا هذا "بلاطجة" ثم نظر خلفهم؛ ليرى عفاف، وبجانبها عفيف، وعاصم وحمدي وعبد الصَّمد.

نظر عادل إليهم باستغراب متسائلًا:

- ماذا يحدث؟

ردّ صوت غريب مزمجرًا :

- كفاك نومًا على أموال النَّاس، وصوت آخر :
- اخرج من بيت النّاس .

نظر إلى وجوه عفاف، وعاصم، وعفيف، فلمْ يرَ سوى وجوه جامدة، وجوه أصنام، ولكنْ كان أكثرهم ارتباكًا وجه عفيف، كان ارتباك الشُّعور بالذنب، وأجمد الوجوه وجه عفاف، فقد بان على وجهها فرحة للتَّخلص من عادل، ذلك الغريب الذي لطالما كرهته.

صرخ عادل : انتظروا...

حسنًا أنا لن أظل هنا طويلًا فإن أردتم خروجي فسأخرج لكن اعطوني مهلة؛ لأغادر فيها البيت.

صرختْ عفاف:

- مهلة؛ لتسرق ما خف وزنه، وغلا ثمنه .

ردَّ عادل بغضب : أنا لستُ سارقًا.

فقفز عبد الصَّمد: إذًا اخرج الآن، وكفاك تلكّأً.

كان عادل ما يزال جالسًا على الأرض، شعر بانكسار شديد، فقد كان يعلم بأنَّه ليس صاحب حق، فلم تربطه بصابر أي قرابة قانونيَّة، إلا أنَّه كان أقرب النَّاس له، لكن ذلك لا يعني شيئًا لأحد.

ردَّ عادل بانكسار :

- حسنًا في الصَّباح الباكر...

ردَّت عفاف:

- الآن ستخرج بملابسك، ولا تأخذ معك شيئًا .

هنا وقف عادل بهمة؛ ليقول لها بأنَّه على الأقل سيأخذ أشياءه الخاصّة، فقط لكنَّه ما إن وقف حتى جاءته ضربة عصا من الخلف، وكادتْ تقسم ظهره من الألم؛ لينزل على ركبتيه، ليلحق بتلك الضَّربة لكمة أرعفتْ أنفه، فسمع صوت حمدي متحدثًا ببرود:

- اخرجوه من البيت قبل أن تتّسخ الأرض بدمائه .

هنا شعر عادل بهوان، وقهر شديدين، فأمسك بأقرب قدم منه ورفع صاحبها للأعلى، ثمَّ رماه أرضًا، حتى خار أمامه مغشيًا عليه، ثمَّ انهالتْ على عادل العصي، واللّكمات من كل الجهات فَحُمل وأُخذ إلى سيارة أخذته إلى مكان ما ثمَّ رُمي على الأرض، وتلقَّى بعض الرَّكلات على جسده كله، ثم أُمسك به من شعره؛ ليسمع صوت أحدهم:

- إياك أن تضايقهم، وإلا قُتلت، ودُفنت، دون أ يُعرف لك قبرًا يذكر، ثم غُمر وجهه بالتُّراب، حتى لم يستطع التَّنفس ،فتُرك مرميًا، حتى استطاع رفع رأسه بثقل شديد، بدأ يسعل، ويتنفّس بصعوبة كبيرة .

حاول الجلوس ثم نظر يمينًا، ويسارًا محاولًا معرفة المكان الذي كان فيه.

كان جالسًا على رمال طينيَّة، وعلى بعد حوالي عشرة أمتار من الطّريق السَّريع.

حاول المشي تارّة، والزَّحف تارة إلى الطّريق، كانتْ أمتارًا لكنَّها طالتْ عليه من شدة الألم، ولمْ تكنْ السَّيارات تمر بكثرة، فيبدو بأنَّ الوقت كان منتصف اللّيل، فما كان منه إلا أنْ استسلم للتّعب؛ وليغفوا على التُّراب، ثمَّ شعر بيد أحدهم تربِّت على كتفه بقلق شديد، وما إن تحرَّك ببطء حتى شعر بتنهد أحدهم، وهو يقول : الحمد لله أنَّك بخير يا ولدي، لقد كان العم مختار، الذي حاول مساندته إلى سيارته دون أن يتعب عادل بالأسئلة.

نظر عادل من نافذة السَّيارة، واستطاع معرفة الطَّريق، كان طريق البريقة السَّريع.

- كيف عرفت بأنّي هنا يا عم ؟
- عرفتُ بأنَّهم نووا طردك من البيت، فبعثتُ من يراقبك عن بعد، وما إن علمتُ بقدومهم توقعتُ بأن يؤذوك، لكن لم أتوقع بأن يكونوا بهذه الوحشيَّة.

قالها العم مختار، ودموعه تنهمل من وجهه المجعّد.

فواصل حديثه قائلًا : أتعلم ؟

طوال الطّريق، وأنا أنظر يمينًا، ويسارًا وكأن قلبي كان يدلّني عليك

نظر عادل إليه بابتسامة منهكة.

فردَّ العم مختار بحزن شديد :

- أنت الأمانة التي حمّلها صابر لي، وأنا لم أحفظها يا بني .
- أنا لست ولدًا يا عم مختار.

انسَ أمر الأمانة، فأنا أحلّك من أمري .

نظر العم مختار إلى عادل، ثم حاول تغيير الموضوع : اسمع أنا ذاهب إلى بيتي في المعلا.

أعرف بأنَّك تكره المستشفيات، لديّ جاري ممرض ممتاز سيطبّبك سريعًا، ريثما أحضر لك العشاء؛ لتنام... من حسن حظك قد أصلحتُ التَّكييف، وأنتَ تعلم بأنِّي أعيش لوحدي هنا...

أو أخذك إلى مقهى في الشّوارع الخلفيَّة يصنع الخبز والمأكولات الشَّعبية اللّذيذة، والشّاي إلى الفجر، سنتعشَّى معًا ونسامر بعضنا البعض...

ظلَّ عادل صامتًا، فقد أراد الهرب من العالم كلِّه، فقد مرَّ بكابوس مميت، محاك بخيوط من الإهانات بشتَّى الألوان من التَّهكم، والضَّرب، والمذلَّة.

وصلا إلى العقبة، وقد ثقلتْ سيارة العم مختار، فنزل عنها بابتسامة من الحرج، وهو يتمتم :

- ههههه لقد فعلتها ثانية...

وما إن نزل، حتى شعر عادل بضيق شديد مع توقف الهواء الذي كان يهف عليه من النَّافذة، فنظر إلى نصف قارورة ماء قديمة كانت ملقاة بجانب مقعد العم مختار، وقد شعر بعطش شديد، فأخذها، وغادر السَّيارة دون أن يلاحظه العم مختار.

قـد تحتلّـك لحظـات مـن الضّـعف كفيلـة بـأن تعلِّمـك أنَّـك مكبـل بـأغلال بأنَّـك كالشُّـعوب العربيَّـة التي كلمـا ثـارتْ ثـار ضـدِّها الماء والهـواء كحيـوان أُخـذ مـن غابـات البريـة إلى قفـص صـغير فحـاول الفـرار، ولـم يهتـدِ سـوى للاستسلام فينطفئ بريق الحريَّة في عينيه يوم بعد يوم.

وحي

فـتح عينيـه طـاردًا ذلـك اليـوم الأسـود الـذي علـق بذاكرتـه، ثمَّ هـمَّ بـالوقوف بانفعال شديد؛ ليتنفس بصعوبة كبيرة.

ظـلَّ عاقـدًا حاجبيـه بنظـرة مليئـة بالغضـب الشَّـديد، خلـع قميصـه، نـزَّل حبـال القـارب، وأخـذ نفسًـا طـويلًا، ثمَّ ألقـى بجسـده في البحـر، أخـذ نفسًـا عميقًـا، وغـاص بـين ثنايـا دجـى البحـر السَّـاكن، فـتح ذراعيـه، وأغلـق عينيـه، وتـرك أمـواج البحـر تضغط على رئتيه فكلّما نـزل أكثر كلمّـا ازداد ضغطها عليـه، ومـا إن شعر بحاجتـه للهـواء، حـتى انطلـق للأعلـى أخـذ نفسًـا عميقًـا، ثمَّ ربـط ذراعـه بحبـل صـغير مربـوط بالقارب، واستلقى طافيًا على سطح البحر .

دعني أخبرك بنصيحة ما.

إنَّ للبحر سحر لا يمكن لمن تعوَّد السِّباحة تجاهله، فكلمَّا شعرتَ بضيق شديد اسبح فيه، حتى لو لمْ تتعود السِّباحة اغمسْ جسدك المهموم فيه، ودعه يضغط على رئتيك أطلْ المكوث فيه، ولو أطلتْ البقاء فيه لساعات لن تخرج منه إلا منهكًا، كمن صعد الجبال العالية لكن صدِّقني، ستشعر براحة لم تشعر بها سابقًا، وستنام نومًا عميقًا؛ لتصحوا؛ وكأنَّك رميتَ تلك الهموم المطبقة على صدرك، كمن يرتمي بثقله على سجادة الصَّلاة، ويطيل السُّجود، فيرفع جسده، وقد خفَّ صدره ورأسه من هموم، وذنوب الحياة؛ ليتنفَّس بيسر، وراحة .

لذة الانتقام

أذَّن إمام المسجد مناديًا؛ لصلاة الفجر، وإذا بعفيف يجلس بالمسجد، وقد وضع كفَّه على جبينه، وهو يفكِّر بما حلَّ بهم؛ ليشعر بأحد يجلس أمامه .

لقد كان عادل، وقد تقرفص أمامه بابتسامة لم تخلُ من الخبث: هون عليك يا رجل، ما بك ؟

نظر إليه عفيف بكسرة نفس:

- ما رأيك أن تتنازل عن تنفيذ الوصيَّة، والوصاية علينا، وسنخرج من البيت، فهو لك، وليذهب كل شخص لحاله. ابتسم عادل ليبيّن أسنانه، بل أنيابه، فقد بدا لعفيف كالذِّئب، وهو ينظر إلى فريسته، فقال: ما هذا الهراء يا عفيف، إنَّها وصية !

أولا تعلم بأنَّ وصيَّة الميت لابدَّ أن تنفّذ، أم أنَّك كمن يتحدثون في أمور الدِّين، وهم يجهلونه ؟ بان على وجه عفيف الغضب، فقال :

ماذا تريد يا عادل؟

ردَّ عادل، وهو ما يزال مبتسمًا :

- يعجبني فيك وضوحك، فأنت لا تتقن اللَّف، والدَّوران، كعفاف، وعاصم .

اسمع .. بعد الصَّلاة يستيقظ الجميع، وستخبرهم بأنّنا سنجتمع على طاولة الإفطار في السَّاعة السَّابعة صباحًا، وأخبر عفاف بأن تُحضِّر إفطارًا جيدًا؛ لأنّي دعوتُ المحامي، والعم مختار؛ ليتناولاه معنا، وبعد الإفطار سأملي عليكم ما يجب علينا جميعًا القيام به.

تصنَّم عفيف من ثقة، وبرود عادل، فكيف له أن يحدِّثه بهذه الطّريقة ؟

- يبدو بأنَّك جننتَ يا عادل.

هل صدَّقت نفسك ؟

- اخفض صوتك فنحن في المسجد، ثم تنفَّس براحة وقال :
- أتعلم؟

لطالما أعجبني معرض السَّيارات الذي أعطاك إيَّاه جَدّي . ازدادت ابتسامة عادل سعةً، ثُمَّ قال : آها، قامتْ الصَّلاة يا عفيف، أراك في السَّابعة . وطرفه بغمزة ماكرة، وأخذ مكانًا بين صفوف المصلين. نفَّذ عفيف ما أُمر به، وأيقظ الجميع، وأخبرهم بأمر عادل . وجنَّ جنون الجميع بلا استثناء، إلا أنَّ عفاف عضّتْ وشاحها، ومزقته قهرًا، فحاول عفيف التَّخفيف عنها . صرخت:

- أنا .. أنا يأمرني بتحضير الطَّعام له، ذلّك اللّقيط الذي جاء من الشَّارع ...

- اسكتها عفيف:
- اصمتي، فهو الآن في غرفة أبي، وأيَّده عاصم :
- نعم أنا مع رأي عفيف، فهو يتلكّك؛ ليحصل على أموالنا جميعًا؛ لذا يجب أن ننفذ أوامره، ونصبر هذا العام، وبعد أن نأخذ منه حقَّنا سأريه نجوم الظّهر يا عفاف .

وصل المحامي، واجتمع الكل على مائدة الطَّعام الكبيرة، ليدخل عليهم عادل مرتديًا ملابس لم تكن غريبة عليهم، فقد ارتدى ملابس الحاج صابر؛ ليحرق ما تبقى من أعصاب الجميع...

كان مرتديًا إزار الحاج صابر، والإزار هو لباس يلفُّه الإنسان عادة ما بين السُّرة، والرُّكبة، وهو زي محليّ يرتدونه في جنوب اليمن غالبًا، ويطلق عليه بالعاميَّة (المعوز) كما ارتدى (شماغ) الرَّأس الذي نطلق عليه في مدينة عدن بـ(المشدَّة) وخُف الحاج صابر أي (الصَّندل) الجديد، لكنَّه ارتدى قميصه الخاص، فالحاج صابر كان ممتلئ الجسد، فارتداه أبيض اللّون؛ لأن الحاج صابر لا يرتدي سوى اللَّون الأبيض، تقدَّم، وجلس على مقعد الحاج صابر على رأس طاولة الإفطار، فقالتْ عفاف، وهي تجزُّ على أسنانها:

- أعتقد بأنَّ الأولى بالجلوس على مقعد أبي، هو أحد أبنائه عفيف، أو عاصم.

ابتسم عادل قائلًا :

- عندما تجتمعون في بيتكم في المنصورة، افعلي ما تشائين أما هنا، فليس لأحد أن يقرر عنّي، وهذا مقعدي من اليوم فصاعًدا .

ثم رفع رأسه، ليرى المحامي سيف، والعم مختار يدخلان للغرفة، وقف مسلمًا عليهما، ولأول مرَّة تجتمع العائلة بالكامل؛ لتناول الإفطار معًا، ولو كانوا في قمة الغضب .

انتهى الإفطار، فوقفتْ سمر، وهي تنظر إلى ساعتها ، لتغادر الغرفة، فارتفع صوت عادل:

- إلى أين ؟

ردَّت لينا، وهي تضع كوب الشَّاي؛ لتغادر هي الأخرى قائلة :

- لدينا مدارس، وجامعات الآن يجب أن...

قاطعها عادل بصوت ملأ الغرفة علوً :

- لن يذهب أحد إلى أي مكان اليوم.

عمَّ الصَّمت المكان، وقد ذُهل الجميع من طريقة عادل غير المعهودة، ثُمَّ صرختْ سمر موجهة حديثها للمحامي :

- هل هذه هي الوصيَّة التي أوصى بها جَدّي ؟

أنْ يستعبدنا هذا المجنون؟

صرخ عاصم :

- سمر !

ردَّ عادل ببرود قاتل، وهو ينظر إلى ساعته، فقال:

- لديكم ربع ساعة؛ لتكونوا جميعًا في الدِّيوان الكبير، ومن يتخلَّف عن المجيء، فقد عصى أمري، وخالف وصيَّة جَدّي.

رمق العم مختار عادل بنظرة عتاب، لكن عادل لم يبدِ اهتمامًا، وكأنَّه لم يرَ شيئًا، ثُمَّ غادر الغرفة، ليلحق به عاصم إلى الدِّيوان الكبير:

- أرجوك يا عادل ألا تدخل أبناءنا في مشاكلنا، أعلم بأنَّك غاضب مني، ومن عفاف، وعفيف، ولكن... قاطعه عادل:: _أكمل وحمدي، وعبد الصَّمد.

- إنهم أصغر منك يا عادل .

- أمم، وهل أنا في سنِّكم يا عاصم ؟

رد عاصم قبل أن يدخل أحد إلى الدِّيوان :

- حسنًا لا تدخل سمر، والبنات في خلافاتنا .

- أنا لست مريضًا نفسيًا؛ لأحمل أحدًا ذنب الآخر.

- إذًا دع البنات يذهبن إلى مصالحهن .

صرخ عادل:

- عاصم... كفاك إضاعة للوقت وأحضر الجميع .

كان العم مختار واقفًا في باب الدِّيوان، وقد أذهلته قسوة عادل !

رمق عاصم العم مختار، وهو يغادر الدِّيوان بنظرة حزن، وكأنَّه يقول له انظر ماحلَّ بنا .

دخل العم مختار، وقد بان على وجهه الغضب من تصرُّفات عادل، فأمسك عادل بذراعه قائلًا:

- اصبر حتى نذهب للاجتماع، وسأبين لك كل شيء وبدأ الكل بالدّخول، واحدًا تلو الآخر، حتى اجتمعوا كلّهم في الدِّيوان الكبير .

هذه المرَّة لم يكنْ عادل منزويًان بل تصدَّر رأس الدِّيوان، لا بل وبدأ بإلقاء الأوامر على الجميع بحضور المحامي الذي بدأ يدوّن كل ما كان يقوله لهم، بدأ عادل حديثه:

- سأملى عليكم بعض الأمور التي يجب عليكم تنفيذها حرفيًا دون نقاش.

تبادل الجميع النَّظرات بغضب عارم، فارتفع صوت حمدي مندّدًا: يبدو بأنَّك قد صدقتَ نفسك يا عادل .

فتجاهله عادل مكملًا حديثه:

- أرجو من السّيد سيف تدوين كل ما أقوم بذكره، وطباعته فيما بعد، وتوزيع الأوراق على الجميع، حتى لا يتسنّى لأحد أن يقول بأنَّه نسى؛ لأنَّ من

ينسى، أو يتناسى، أو يرفض تنفيذ ما سيتم ذكره، فقد عصى أوامري، وأراد أن يتنازل لي بربع ما يملك، وأنا سأكون شاكرًا تنازلكم لي بالطّبع...

اومأ المحامي سيف برأسه مؤيدًا لعادل.

كما عمَّ الصَّمت في المكان فأكمل عادل حديثه:

- بالّنسبة لرجال، وشباب العائلة يجب أن تنفذوا ما يملى عليكم الآن يوميًا

أولًا: سنلتقى في الجامع عند أذان الفجر، ونصلي معًا، قاطعه علوان بحماس:

- وهل ستوقظني بكوب من القهوة الثَّقيلة مع التَّمر، كما فعلت منذ ساعة؟

لا يا عادل أرجوك، أنا لم أتعوّد الاستيقاظ سوى بعد الظهر، هذا إن صحوتُ باكرًا، فأغلب أيامي أصحو عند العصر.

صمت عادل قليلًا ،ثمَّ قال :

- أستاذ سيف

لو سمحت دون بأنَّ علوان متنازلًا عن جزء من السُّوبر ماركت الخاص به لعادل عزّ الدّين النَّاصر.

قفز علوان؛ ليقف منتصبًا، فقال:

- ماذا بك يا عادل ؟ ماذا تريد منَّا ؟

اسمع أنا سأفعل أي شيء إلا أن تتدخّل في حياتي الخاصّة لو سمحت .

ظلَّ عادل صامتًا كالصَّنم، ثمَ قال :

- أ أنهيت كلامك ؟

ثُمَّ استطرد :

- بعد أن نصلي جميعًا، سنذهب للسِّباحة لساعة، أو نصف ساعه كل يوم .

صرخ عبد الصَّمد :

- ما رأيك بأن نسليك، ونترك جامعاتنا، ودراستنا.؟!

قاطعه عادل ببرود قاتل، فقال:

- ومن قال لك بأن تتوقف عن الدِّراسة؟!

واستطرد:

- بعد السِّباحة، سنأخذ حمامًا...

ثم قفز علوان مقاطعًا : معًا ؟

فردَّ عليه عادل، وهو يكتم ضحكته، وسط ضحكات صامتة ممزوجة ببعض الغيض؛ ليواصل عادل حديثه:

- بعد ذلك سنفطر جميعنا معًا، وجميعًا أي كل من في البيت.

كما فعلنا اليوم صباحًا، فردّ عليه عبد الصَّمد بشراسة:

ما هذا الهراء؟

كيف تتناول الإفطار معنا، وأختي وأمي منتقبتان؟

لا تنسَ بأنَّك غريب على العائلة.

قفز حمدي داعمًا لعبد الصّمد:

- هذا صحيح، وكل شخص له حريته الشَّخصيَّة، فكيف تفرض علينا رأيك يا عادل ؟

ردّ عادل بكل هدوء:

- حسنًا سنحضر طاولة أخرى متوسطة، ونضعها في هذه الزَّاوية جانبًا؛ ليجلس عليها النِّساء براحتهن، ولتجعل أختك ووالدتك يقابلن النَّاحية الأخرى.

أعتقد بأنَّ المسألة قد تمَّ حلها الآن.

ردَّتْ عفاف بغضب :

- لا، لمْ تحل أبدًا .. من الذي سيطبخ الإفطار ؟

ردَّ عادل أنتِ، والبنات، كما أنَّكِ ستطبخين الغداء، والعشاء.

قفزتْ عفاف معترضة على كلامه:

- نحن لسنا خدم لأحد

- ستخدمين إخوتك، وأولادهم، وستزيدين طبق لشخص واحد فقط هو الفتى الغريب الذي كبر في بيتكم يا سيدتي، وهو أنا...

عدّي ذلك صدقة.

- أنا لا أتصدَّق إلا عندما أرغب في أن أتصدق .

قاطعها عادل، وقد علا صوته في الدِّيوان :

- إذًا اعتبريه أمر.

فقاطعه عبد الصَّمد بعصبيَّة :

- اسمع يا عادل أنا محتج، فليس من حقك أصلًا المبيت معنا في نفس البيت، فكما تعلم البيت به بنات، لسنَ من محارمكَ.

- إذًا نويتم المبيت خارج بيتي.

اتَّسعت أعينهم جميعًا، فواصل عادل حديثه :

- أولًا الحاج صابر رجل عاقل، ، لمْ، ولنْ يسمح ببقائي معكم إنْ لم أكن محترمًا، وعاقلًا...

أنا أعرف حدودي جيدًا يا عبد الصَّمد، ولستُ بحاجة للتّذكير كيف عليَّ أن أتصرَّف مع بنات عائلة صابر، فعرض صابر هو عرضي، ثمَّ استطرد :

- وإنْ كان هذا رأيك، فمعنى هذا بأنَّه عليك أن تغادر البيت أنت، وحمدي؛ لوجود بنات ليسوا من محارمكم أيضًا.

ألیس كذلك، أم أنني مخطئ؟

ارتفع صوت علوان :

- كفاكم خلطًا للماء، فلا فائدة مما تقولونه، فالبيت كبير جدًا، ومصمّم بأريحيَّة، فلنعدّه كأنّنا في فندق، كما أننا نعرف أبناءنا، وطباعهم، حتى لو كان بهم عبر الدُّنيا، أو تصرَّفوا كالبعير في بعض الأحيان، فليس لهم في الأمور غير الأخلاقية أبدًا.

قاطعه حمدي بوجه مصدوم : عمي، نحن نتحدَّث عن عادلن فهو غريب، وشكرًا جزيلًا على الإطراء النَّاعم .

رد علوان :

- لا لا .. عادل ولد خلوق ومهذب، لا يقارن بك، أو بعبد الصَّمد أبدًا، شتان بينكم، يكفي بأنَّه تربَّى على يد أبي .

بدأ عادل بمسح وجهه محاولًا تغيير الموضوع، فقد شعر بالخجل، ليسمع صوت عفاف المنفعل :

- ماذا دهاك يا أخي !

أولادنا مهذبون، وليس بهم شيء فقال عاصم : لا عليك يا أختي، فعلوان يلمع وجه عادل؛ ليتركه في حاله أليس كذلك يا علوان ؟

ردَّ علوان: أنا ؟

قال عادل : العم علوان أكثر رجل صريح وواضح في هذه العائلة، فما في قلبه دائمًا على لسانه دفعت لينا خديجة على كتفها، وهي تقول:

- أعتقد بأنَّ عبد الصَّمد قد تمادى قليلًا أليس كذلك ؟

فأومأتْ خديجة برأسها بالموافقة، ثمَّ نظرتْ إلى سمر التي كانت تفكر، فيبدو بأن برأسها شيء، رمقتهن بنظرة خبيثة، ثمَّ قالتْ:

- لقد عرفتُ كيف سنوقع عادل في شر أعماله.

أمسكت بذراعها لينا، وقد بان في عينيها القلق، فقالتْ: ماذا ستفعلين يا سمر ؟

- ابتسمتْ لها سمر، وقالتْ: سترين، واسكتتهنَّ خديجة، عندما واصل عادل الحديث ثانية، فقال :

- شكرًا يا عم علوان، فأنا لا أستحق هذا المدح، خاصة الآن فأنا هنا؛ لأنتهز الفرص، فمن كان صاحب خلق قد مات للأسف.

قفز عاصم من مكانه بانفعال فقال : دوِّن يا سيف إنه يحاول الحصول على أموالنا.

ردّ عادل بابتسامة قاتلة :

الأخ سيف هنا؛ ليرى إن كنتم ستنفذون الوصيَّة، والوصيَّة هي أوامر عادل، لقد قال جَدّي: بأنَّ من يعترض على أمري، فقد تنازل لي عن ربع إرثه، وأنا لم أطلب الكثير، أليس كذلك يا سيِّد سيف ؟

هزَّ سيف رأسه بالموافقة، فقد أعجبه استفزاز عادل لهم فلطالما رأى دموع الحاج صابر تذرف حزنًا؛ لتجاهلهم ونسيانهم له، ليقطع صوت عادل العالي تفكيره، وهو يقول :

- أرجو بألا يعترض حديثي أحد، حتى أُنهي كل شيء، ومن معه أي تعليق، فليتحدَّث بعد أن أنتهي من الكلام كله، ومن يعترض، ويقاطعني دَوِّن اسمه يا أخ سيف لو سمحت، فواصل عادل حديثه وسط شعور الجميع بالاضطهاد، فقال:

- إذًا سنصلي معًا جماعة كلمَّا تسنّى لنا ذلك إلا من غاب عن المنطقة؛ لعمل أو غير ذلك، وسنخصص مواعيد للإفطار، والغداء، والعشاء معًا،

وسنخصص باصًا؛ لأخذ الشَّباب، والبنات إلى الجامعات، والمدارس كل إلى جهته، والرِّجال سيباشرون أعمالكم بباص أيضًا.

فقال عاصم : لديَّ سيارة.

ردَّ عادل : سنذهب معًا بباص صغير لـ...

فقال عاصم مقاطعًا، ومحاولًا إسكات عادل: وقد بلع غضبه ليحقق مبتغاه:

- لقد تعودت أن أدير المستوصف لأبي من حين لآخر فماذا الآن ؟

فقفز سيف مقاطعًا أيضًا، فقال : أعتقد بأنَّ عاصم قاطعك مرتين عن الحديث فوقف علوان قائلًا: عفوًا، سيف بيك... أرجوك كن مصدر خير، ولا تعمي ما تبقى لنا من بصر .

شدَّ عادل وجهه؛ كي لا يبتسم ثمَّ قال :

- اسمع يا عاصم ستكملون أعملكم، كما كنتم تعملون سابقًا، فهده أملاككم في النِّهاية، إذا نفذتم ما طُلب منكم بالطَّبع .

مخططات شيطانيَّة

مرَّ حوالي أسبوع، والكل يمشي كما طُلب منه في سبيل عدم خسارة فلسًا واحدًا؛ لصالح عادل .

وباستطاعتك رؤية عادل، والعم مختار، وهما يتناولان الإفطار معًا بجانب سوق بانافع وسط فوضى الباعة، والمارّة.

نظر عادل حوله، ثُمَّ قال :

- انظر إلى ما وصل بنا الحال يا عم !

هل هذه عدن؟

أين كنّا، وأين صرنا ؟

كنَّا نعيش في نظام، ونظافة، وتقدُّم منذ القرن الماضي إلى التِّسعينات، ثُمَّ بدأت حالة من الفوضى، ولكن ببطء إلى أنْ قامتْ حرب الحوثيين، فانفجر إعصار من فوضى السَّرقات، والقتل، وانعدام كلي للنِّظام، والنَّظافة، والأخلاق وكأنَّ أغلب النَّاس تبدَّلت بشياطين لا يهمّها سوى مصلحة شخصيَّة، وليحترق الوطن من بعدهم.

أساسًا كلمة وطن لم يعد لها أي أهميَّة في هذا الزمن !!

فابتسم العم مختار، وربّت على ذراع عادل قائلًا:

دوام الحال من المحال يا بني، وسيصلح الحال إن تقرَّب النَّاس من الله بالدُّعاء، وأصلح كل شخص من نفسه قبل أن يصلح غيره .

ردَّ عادل بحماس ثوري :

- آخ... لو بيدي إصلاحها
- اترك لكل شخص عمله..

قاطعه عادل بعصبيَّة :

- وماذا لوكان أكثرهم لا يعرف عمله أصلًا، ولا يعرف سوى المصلحة الشَّخصيَّة فقط؟

فأعاد العم مختار جملته : اترك لكل واحد عمله، حتى لو لم يعرف أحدً واجبه، أو رفض أنْ يعمل واجبه، هل ستقاتل النَّاس ؟ ومَنْ ستحاكم ؟

اقترب من الله، وافعل الخير، وساعد الفقراء، وأكثر من الصَّدقات، اخرج أنتَ، وأصدقاؤك، ونظفوا الطُّرقات، هل سمعت عن شباب (طفرة عدنيَّة) وما يفعلوه في سبيل الخير ؟

- نعم إنَّهم مجموعة رائعة من الشَّباب، لكن يوجد من يخرِّب كل ما يفعلوه .

- لا يهم، فالله يرى، ولا يضيع أجر أحدٍ أبدًا، المهم هو عدم اليأس من رحمة الله.

انشر الرَّحمة بين النَّاس، وستجد مائة عائلة تدعمك؛ لعمل الخير، وكلمّا ازداد الخير في بقعة من بقاع الأرض شفاها الله من مرضى النُّفوس يا بني .
واستطرد قائلًا :

- أتعلم يا بني؟

لقد كنت رجلًا سيئًا في شبابي، وقد ظلمتُ نفسي ومن حولي، فأقترب منه عادل بحماس :

- غير معقول !
- لهذا أقول لك بأنَّ دوام الحال من المحال .

فأعاد عادل ظهره للوراء، وتنهّد بصوت مسموع، ونظر إلى السَّماء

قائلًا : يا رب .

حلّ اللّيل حيث كان حمدي، وعبد الصَّمد يجلسان في إحدى الغرف، كعادتهما، وهما يتحدثان بحماس شديد فقال عبد الصَّمد لحمدي :

- ماذا الآن ؟ أنفعلها حقًا ؟

- ألمْ تقل بأنَّه لا يستحق العيش ؟

- إذًا يجب أن نتخلَّص منهم جميعًا، وبضربة واحدة .

ليسمعا صوت شيء قد سقط خارج الغرفة، فقفزا إلى الباب، وفتحه حمدي بسرعه؛ ليسمع خطوات تركض، حاولا اللّحاق بمن كان يركض هاربًا، فلمْ يستطيعا الرُّؤية؛ لظلمة المكان، فحاولا اللَّحاق بذلك الشَّخص لكن دون جدوى، فالبيت كبير جدًا، فعادا إلى الغرفة، وقد بدأ الشَّك يقتلهما . فقال حمدي ولكن بهمس هذه المرَّة :

- إنَّها ليست المرَّة الأولى التي يتنصّت بها أحدهم علينا.

- يجب أن نعرف من الذي يتنصّت علينا هكذا .

إيـاك أن تسـعد بالانتصـار يومًـا تهيـأ دائمًـا، وكـأنَّ حربـك لـم تنتـهِ بعـد! فسعادتك سترخي أعصابك وتهيؤك لطعنة العدو.

وحي

قناع القطة

وفي أحد الأيام حيث كان عادل يجلس في الشَّاطئ على الرِّمال، كعادته، وهو يستنشق رائحة البحر، وقد أغلق عينيه، وهو يميل ببطء مع صوت البحر، وكأنَّ الأمواج تدفعه، وتعيده عن بعد، ليشتمَّ فجأة رائحة عبقة، رائحة عطر ممزوج ببخور نسائي، أوقفت شعر جسده من الخوف، فقد سمع عن أساطير الجان، وتواجدها في البحار، والجبال، وبأنَّك إن شممتَ رائحة عطر أو طعام وأنتَ في مكان لا يوجد به من هذه الأشياء، فاستعذ بالله، كما أنَّه لم يكنْ هناك أحد في السَّاحل سواه.

شعر بحركة بالقرب من ذراعه اليسرى ففتح عينيه برعب ليرى فتاة شاحبة البياض تجلس بجانبه، وتتأمل البحر برِّقة، وبراعة، وهي تضع أحمر الشِّفاه القاني، وقد رسمتْ عينيها بالكحل الأسود بفن، وإتقان، وللوهلة الأولى شعر بأنَّ دمه قد سُحب منه، فقد أصابه الرُّعب، أهي جنيَّة البحر أم ماذا ؟

ثُمَّ ما كاد أن عرفها، حتى ارتفع صوته: : سمر !

ماذا جاء بك إلى هنا؟

رمقته ببراعة القطط، ثمَّ نظرتْ للأرض، ورفعتْ نظرها نحوه، وقد دمعتْ عيناها، فقال باهتمام :

- ما هذا؟ ماذا بكِ ؟

هنا وضعتْ رأسها على كتفه، ليقفز عادل، ويقف أمامها، وقد ضيّق عينيه، محاولًا اكتشاف ما يحدث .

وقفتْ هي الأخرى، واقتربتْ منه، ثمَّ قالتْ: وهي تنظر في عينيه مباشرة :

- يبدو بأنِّي وقعت بحب أحدهم.

رفع عادل حاجبيه، وهو يهزّ رأسه مشيرًا إليها بإكمال حديثها.

ابتسمتْ بمكر :

- ألا تصدّقني ؟

ردّ عليها بخبث :

- كيف أصدقكِ، وأنا لا أعلم عمّن تتحدثين !

فقالتْ بجرأة غير معهودة : أنا أحبك أنت .

فقفز قائلًا :

- أخيرًا نطقتيها يا سمر... أخيرًا .

هنا شحب لون سمر أكثر من لونها الطَّبيعي، فلم تتوقع جرأة عادل أبدًا، لقد توقّعت أن تربكه، وتخيفه من فضيحة ما، فهو ذلك الشَّاب الوقور الذي يخشى على سمعته، وصورته بين النَّاس، والشَّاب الذي مدحه العم علون أمام الجميع، وهو الرَّجل الذي تعهّد بأنْ يحمي بنات العائلة، فكيف فرح بمصارحتها له هكذا، دون خوف أو قلق !!

ظلَّ ناظرًا إليها، وقد بان على ملامحها الصّدمة، ابتسم، واقترب منها وهو يتفحّص ملامحها محاولًا إرباكها أكثر، أرادتْ الهرب، لكنَّها لم تردْ أن تبدي خوفها .

فقال لها ببرود، وابتسامة قاتلة :

– لطالما ربيّتُ القطط، فأقصى ما قد تصيبني به مجرد خربشات .
هنا أصاب سمر غيظًا شديدًا، فيبدوا بأنَّه فهمها جيدًا.

ابتسمتْ له بلؤم، ثمَّ قالت بنبرة مختلفة، فقد سقط قناع القطّة النّاعمة : ألا تؤمن بالحب ؟

قابلها بابتسامة ساخرة، ثُمَّ أخذ نفسًا عميقًا، ورفع رأسه؛ لينفخ في الهواء، وتختفي تلك الابتسامة، وقد أعاد النَّظر إليها :

– ماذا تريدين يا سمر ؟

إيـاكِ أن تحسـبيني غبيًـا، فقـد أغضـبتكِ سـلطتي علـيكم، وأردتِ أن تقنعـي الجميع بـأنّي لسـتُ صـاحب كلمـة، بعـد أنْ تقـومي بإيقـاعي في حبـكِ، وربمـا يشـطح تفكـيرك؛ لتسـجّلي لي بعـض الجمـل، وأنـا أخاطبـكِ في الحـبِّ مـثلًا؛ لتسـتطيعوا فعـل ما تشاؤون بعد أن أبدو سيئًا أمام المحامي، والعم مختار.

ردّتْ، وهي مبتسمة، وقد أبهرها ذكاؤه :

- أممم... أتعلم؟

ليتـني سـجلّتُ لـك بالفعـل، وأنـت تعـترف لي بحبـك منـذ قليـل، حـتّى ولـو كنـتَ تحاول إرباكي فقط، أليس كذلك ؟

ضحك، وقد انحنى قليلًا، وكأنّه يخاطب طفلة صغيرة :

- لا .. لـيس كـذلك يـا آنسـتي، فأنـا لم أقـل سـوى (أخـيرًا نطقتهـا) وهنـا يجـب سؤالك أنتِ ما الذي نطقته ؟

ابتسـم ببراعـة، لتجـزَّ هـي علـى أنيابهـا، لكنَّهـا لم تفـارق الابتسـام محاولـة إغاظتـه قدر المستطاع، قائلة:

- أراك ثانيـة، مشـيرة لـه بيـدّها البيضـاء، وقـد زينتهـا بـالحلي، ولوّنـتْ أظافرهـا باللّون الأحمر، وغادرتْ برّقة القطط.

فاستدار باتجاه البحر، حتى إذا التفتتْ للوراء لا تراه ينظر إليها، فنظر للبحر، وهو يقول في نفسه : حتى لا يتسنّى لها أن تحلم بأنّني سأنظر إليها أصلًا، ثُمَّ عاود الجلوس مقابل البحر، وقد تنفّس بصعوبة، ثُمَّ قال بصوت مسموع : تبًا لتهزه ذراعان بشدة من كتفيه، وقد صرخ أحدهم في أذنه:

- لماذا تبًا ؟

التفتَ، وقد برزتْ عيناه من الرَّهبة؛ ليرى العم علوان خلفه، فقال، وقد شحب صوته :

- يبدو بأنّي لن أكمل العام، إلا وأنا برفقة جَدّي !

جلس علوان بجانبه فقال :

- اسمع يا عادل، أنا تعبت.

أرغب في الشُّرب، وأنتَ لا تدعني إلا عندما أصلي الفروض كلها، فتشعرني بالذَّنب؛ لأنّي لا أريد أن أصلي، وأنا سكران، أو محشِّش؛ لذا أرجوك اعتقني يا بني .

نظر عادل إليه قائلًا:

- إذًا اسمع هذه النَّصيحة، وأنا سأمتنع عن تذكيرك بالصَّلاة.

"اذهب واشكوني إلى الله، وقل له بأنَّك خائف من أنْ آخذ منك رزقك، وبأنك لست خائفًا من أن تغضبه"

فإن تجرأت على هذا فمعناه بألا فائدة من كل ما أفعله معكم وسأتركك في شأنك، ولن أفرض عليك شيئًا .

هنا نزلتْ دموع علوان، ثُمَّ أجهش بالبكاء، ثُمَّ قال :

- أتراني سيئًا إلى هذا الحدّ ؟

فمسح عادل على كتفه، وقال : بل أرى بأنَّه مغشي على بصيرتك، السّنين تمرّ، وحياتك تضيع هباءً، ونقودك تختفي، وأنت في سبات يا عمي...

ستفني حياتك في الدُّنيا، وتضيع الآخرة عليك، دون أن تشعر .

فابتسم العم علوان، وقال :

- أتعلم؟

لطالما حلمتُ بولد مثلك يا عادل .

ابتسم عادل له، وقال :

- أنا ابنك بالفعل يا عمي، وأقسم بأنِّي أحبكَ، وأحبُّ صحبتكَ كثيرًا .

فبكى العم علوان، واحتضنا بعضهما ثمَّ قال:

- أتعتقد بأنَّ الله يرى فيّ خير ؟

ابتسم عادل وقال :

- لو لم يرَ فيك خيرًا، لما جعلني في طريقك؛ لأساعدك فأنتَ رجل طيّب.

ابتسم العم له، ثم قال :

- اسمع أنا امرأة إن شربتُ رشفة واحدة بعد اليوم أو اشتريتُ أو جربّت قطعة حشيش. فابتسم عادل وقال : امرأة ؟ فردّ علوان بحزم : امرأة .

ثمَّ سمعا صوتًا رقيقًا يقول :

- عن أي امرأة تتحدثان ؟

نظرا إلى الخالف، فكانتْ سمر، قد عادتْ ثانية، فسألها عادل بقلق :

ماذا تريدين ؟

ردّتْ عليه بابتسامة كلها لؤم : أنا لم آتِ لأجلك، بل جئتُ باحثة عن عمي علوان .

فقال العم :

- خير.
- إنَّه سر يا عمي .

وقف العم علوان، وقال أراك لاحقًا يا بني .

فابتسم عادل له، ثُمَّ رمق سمر بابتسامة لئيمة، وعاود لمواجهة البحر، فبدأ ينكمش من ألم أصابه في معدته، فقال في نفسه :

ما هذا الذي أصبح يصيبني؟!

مرّة اتقيأ، ومرّة أتألم من معدتي، أو بطني، وأخرى تضطرب أمعائي، ما الذي يحدث لي ؟

يقال إنَّ العين مرآة الرُّوح لكن ماذا لو كانت الرُّوح تضع مسحوق تجميل!

وحي

إن مسحتَ على بعض الأفاعي، فلا تنتظر منهم وفاء الكلاب

مرّتْ الأيام، وهم يذهبون للسِّباحة كل يوم معًا بعد صلاة الفجر، وفي أحد هذه الأيام تغيّب عنهم خالد صديق عادل والعم علوان، حيث ذهبوا إلى الميناء برفقة المحامي سيف لإحضار شحنة جديدة من المواد الغذائيَّة؛ لبيعها في السُّوبر ماركت.

استلقى عادل على سطح الماء، كعادته، وأغمض عينيه باسترخاء تام، لينظر إليه عبد الصَّمد، وحمدي بنظراتٍ مُلأت بالحقد، والغِلّ اللذين أعطيا للشِّيطان الضَّوء الأخضر؛ ليتخلصوا منه، وقد رمقوا عاصم وعفيف بنظرات شيطانيَّة، طالبة المساندة؛ لإغراقه، سيمسكون أقدامه، ويغطِّسون رأسه، فنظر عاصم إليهم مشيرًا بالموافقة لحظات، وشعر عادل بذراعين قويتين تمسكان به من أعلى ذراعيه، وقد تمّ شدّه للأعلى فوجد نفسه واقفًا على أقدامه، ليرى حمدي وعبد الصَّمد، وعاصم، وهم ينظرون إليه بشراسة، ثمَّ التفتَ للوراء، ليرى العم عفيف، وقد بهتَ لونه من الخوف، والقلق، ففهم ما كان سيحدث لو لم يرفعه عفيف عن الماء .

وباستطاعتك رؤية عفيف، وهو يصرخ بهم بصوت غير مرتفع في إحدى غرف المنزل مُعنفًا إيَّاهم : وهو يقول ماذا دهاكم جميعًا ؟

هل جننتم ؟

سنخسر أموالنا كلّها إن شكّ أحدًا بأنّنا سببًا في موته، أو أذاه.

صمت الثَّلاثة، وهم ينظرون لبعضهم، فقال حمدي: لم أفكر سوى بالخلاص منه، آآه كم يتملكني الغيظ كلمّا رأيته .

فردَّ عبد الصَّمد : الحال من بعضه يا ابن العم .

فقال : عاصم اذهبا الآن فأنا الملام، أنا الكبير بينكما، وكنت سأساعد في هلاكنا جميعًا.

وما إن ذهبا حتى اقترب عاصم من عفيف متأملًا عينيه، فعقد عفيف حاجبيه قائلًا:

- ماذا بك يا عاصم ؟

فرد عاصم بخبث :

- هلا أنكرت بأنَّك سحبته من الموت؛ لخوفك عليه، وليس لمصلحتنا نحن .

فردَّ عفيف بارتباك :

- ماذا تقول ؟ أنا أحاول أن...

فقاطعه عاصم :

- عفيف...

أنتَ أخي الذي أعرفه جيدًا، وقد واجهه وجهًا لوجه.

فتنهّد عفيف قائلًا: أتعلم يا أخي؟

هذا الفتى يفعل أشياء قاربتْ بيننا كثيرًا، كما أنَّه جعل علوان يتوقف عن الشُّرب، لا بل وبدأ علوان يداوم على الصَّلاة، إن فكّرت جيدًا، ستجد بأن ما يفعله هذا الفتى يصبّ في مصلحتنا جميعًا.

- مصلحتنا ؟

لقد تركنا بيوتنا، ومصالحنا بسببه.

انفعل عفيف هو الآخر فقال : مصالح !

أنتَ ما زلت تعمل في المستوصف، كما كنت، بل أصبحتَ تعمل لصالحك بكامل حريّتك أكتر من السّابق، فقد كنت تعمل لصالح أبي .

- اصمت، لقد كنتُ أخرج من البيت؛ لأصل إلى المستوصف في دقائق، فعملي وبيتي في مدينة كريتر، أما الآن أصبحتُ أستغرق ساعة؛ لأصل إلى

العمل ناهيك عن زحمه السَّيارات في جولة "كالتكس" التي تأخذ نصف عمرك بانتظار الفرج .

نظر عفيف إليه بسخرية:

- هذه ضريبة بسيطة جدًا؛ لعصياننا لأبيك، وتركنا له طوال السّنين الماضية، يجب أن نخشى الله على ما فعلناه بأبيك.

- وما الذي فعلناه؟

نظر عفيف إلى عاصم بحزن، فقال : هذه هي المصيبة، فكل شخص منَّا لا يعترف بخطئه، لو لمْ يكن أبوك يحبنا لما قسى علينا، وأي قسوة هذه !

إنّه خير، فنحن الآن أقرب لبعضنا من السّابق بكثير، أصبحنا عائلة واحدة، صحيح أنَّ بعضنا ما يزال أنانيًا، لكنّني ممتن لهذا الفتى فقد عاملنا بما يرضي الله .

هنا صرخ عاصم بحدِّة:

- اصمت...

بما يرضي الله !

إنَّه يعاملنا كالرِّعاع يصدر الأوامر، يهدّدنا دومًا بالمال.

قاطعه عفيف صارخًا :

- أوامر؛ لنصبح بشرًا

انظر إلينا، أصبحنا نلتقي ليل نهار، ونشرب الشّاي معًا، يا أخي حتى السِّباحة في البحر، السِّباحة التي كنَّا نراها شيئًا من السُّخف جعلتني أشعر بنشاط كبير، وتحسُّن فائق في صحتي، لقد خفّ عني ألم المفاصل، وأشعر براحة كبيرة جدًا جسديًا ونفسيًا...

انظر إلى علوان؛ لتعرف ما حصل لنا...

علوان أخي الصَّغير الذي كدتُ أنساه، وأنسى طباعه المرحة، سنين وأنا لا أراه إلا وهو ضائع تائه...

أخبرني متى بحثنا عنه، أو حاولنا أن نأخذ بيده؟

وقد كان يسكن بقربنا، الآن أصبح يجالسنا، حتى أنَّ الدِّماء عادتْ إلى وجهه الباهت، أصبح يعمل في النَّهار، وينام في اللّيل بعد أن كنَّا نلقّبه ببعير اللّيل.

ضحك عاصم قائلًا :

- ألا زلت تذكر ؟

ردَّ عفيف ، وقد هدّأ انفعاله ضحك أخيه، إلا أنَّه استمر في حديثه، فقال :

- انظر إلى بناتنا، أصبحنَ لا يتفارقنَ، حتى ابنتك سمر التي لم تكن تتكلم مع أحدٍ إلا بتعالٍ، أصبحتُ أسمع صوتها، وهي تقهقه، وتساعد في أعمال البيت مع البنات.

والأولاد يذهبون ويعودون معًا...

آآآه... أسفي على أبي الذي مات، وهو يترجّى قضاء يوم واحد من هذه الأيام معنا، لقد خسرناه يا أخي، ليتني عرفته جيدًا، ليتني جلستُ تحت قدميه.

عاشق أفعى

في ذلـك الحـين كـان عـادل مسـتلقيًا على ظهـر القـارب الكبـير، وهـو ممسـكًا بـالزَّهرة الـتي كـان يخبئهـا في الصُّـندوق القـديم، ظـلّ ينظـر إليهـا، وقـد تـاه تفكـيره بذكرياتـه، عنـدما كـان في التَّاسـعة مـن عمـره، عنـدما قطفهـا؛ ليعطيهـا لتلـك الطِّفلـة الصَّـغيرة ذات الشَّـعر الأسـود النَّـاعم، لكنَّـه لم يسـتطعْ إعطاءهـا إياهـا، فقـد كانـتْ تلعـب مـع غـيره مـن الأطفـال، فكلمَّـا اقـترب منهـا نادتهـا عمتهـا تلـك المرأة السَّـيئة، التي لم تكنْ تحب عادل أبدًا...

أغمـض عينيـه، وهـو يتـذكّر ذلـك الصُّـوت النَّـاعم، وهـو يقـول : ألا تـؤمن بالحبِّ ؟

ففتح عينيه، وجلس بسرعة، ثُمَّ قال :

- لا .. أنا أؤمن بأنَّ هنالك أفاعي، كادتْ أنْ تقتلني اليوم .

ثم تنهّد بصعوبة، واستطرد بصوت خافت :

وأنت منهم أيضًا، يجب ألا أنسى ذلك .

نـزل عنـد القـارب واتّجـه نحـو البيـت، ليجـد خالـدًا أمامـه، فقـال : أهـا... أخـيرًا عدتُم ؟

- نعم أخرجنا الشَّاحنة الغذائيَّة من الجمارك، لكن عمك ما يزال لديه الكثير؛ ليعمله هناك .
- أمم... يبدو بأنَّك سعيد بعملك معه ؟
- مؤكد، فصحبة العم علوان لا تقدّر بثمن.

لقد استمتعتُ كثيراً...

ابتسم عادل ، وقال : ما رأيك بالصِّيد لاحقًا، فأنا متفرغ تمامًا اليوم .

- ولِمَ لاحقًا، الآن سآتي معك، ولكن ستصطاد أنتَ، أنا سأرتاح، ثم سنطهو معًا .
- أف... يا لك من صديق وصولي .
- فضحك خالد، ليسمعا صوتًا ينادي عادل من بعيد، كانتْ سمر ممسكة بكأس، وقد مشت بخطى حثيثة نحوه .

نظر خالد إليه، ثمَّ قال :

- اسمع سأسبقك نحو القارب .

فذهب، وما إن صعد إلى القارب، حتى نظر إلى الخلف ليرى عادل ما يزال واقفًا مع سمر، وقد مدّتْ له الكوب، وهو ينظر إليه، فبدأ خالد يتأفّف، ليرى عادلًا، وقد شرب ما في الكوب في جرعة واحدة، فغضب، وحاول أن يتمالك أعصابه، فلم يستطعْ فناداه، ليمرّ بعض الوقت ريثما تذهب سمر، ويأتي عادل .

صعد عادل على متن القارب، فقال له خالد : أخشى عليك يا صديقي من ذلك الوكر فكلّه أفاعي.

- أي أفاعي ؟
- أفاعي ناعمة، وألوان زاهية، ستعمي بصيرتك، ويبدو بأنَّ لكَ ميول للأفاعي، ولن تتراجع، حتى تصيبكَ قرصتها، فنظر عادل إليه، وقد تظاهر بعدم الفهم، فقال :
- عمَّ تتحدث يا رجل ؟
- عن ابنة عاصم، أنتَ تعلم بأنَّها ليستْ لك، فلمَّ تضيع وقتك، وتعرِّض نفسك للأذى .

فبدا على وجه عادل الصّدمة من كلام خالد، فقال :

- من أين جئت بهذا الحديث ؟

ردَّ خالد عليه بغضب :

- أتحسبني غبيًا ؟

أنا أعرفك من قبل أن ندخل إلى الرُّوضة، وأعرف كيف ترتبك عند رؤيتها . فابتلع عادل ريقه؛ ليردَّ عليه، وقد تشنّجتْ ملامحه، فقال له: اسمع ...أنا... قاطعة خالد : اسمعني أنت.

أنـا أرى صـحتك تـزداد سـوءًا يـوم بعـد يـوم، تمسـك علـى بطنـك، وتتـألم دون سـبب ، وكـم مـرّة تقـول لي: بأنَّـك تقيـأت؛ لأسـباب غـير معروفـة، وأنـتَ عـادل صاحب البنية القويَّة.

ماذا حدث لك ؟

لقـد تنـاقص وزنـك، فمـا الـذي قـد يحـدث لـك، وأنـتَ تسـكن مـع أولئـك الضّباع المتشوقة لموتك .

ظلَّ عادل صامتًا، ثم قال :

- إنَّهـا المـرة الأولى الـتي تسـقيني فيهـا سمـر كـوب مـن ال ...
أسكته خالد :

- ولِم لا تكون قد دسّت لكَ شيء ما في كل مرّة دون أن تعلم؟
أو تكون تلك الحية الكبيرة تقدِّم لكَ طعامًا به شيء...

انتظـر منـذ مـتى تأتيـك سمـر بالعصـير، أو غـيره ، وهـي الـتي لا تخـدم أحـد؟ فردَّ عادل بنفس الهدوء :

أولًا عفـاف عنـدما تقـدم لنـا الَّطعـام تقدِّمـه مـن طبـق كبـير وتصـبّ منـه للكـل؛ ليتناول منه الجميع .فردَّ عليه خالد بحماس :

ــ إذًا احذر من سمر .

حينما يتنحّى عقلك، ويمسك قلبك زمام الأمور فيحدث ثورة تسقط كبرياء دولتك تبتاع لنفسك قفصًا! وتعطيه مفاتيح قفصك وخزنتك ليصبح أمرك بيد أحدهم... تبًا... لقد وقعتَ في شِراك الحب !!!!

وحي

الفاجعة

حلَّ العصر، وقد نزل عادل وخالد معًا، وبجوزتهم بعض السَّمك الطَّازج الذي تقاسموه، وذهبوا به نحو بيوتهم، وما إن اتّجه عادل نحو البيت، حتى رأى المحامي، وعاصم وعفيف، وحمدي، وعبد الصَّمد معًا، وقد شحبتْ ملامحهم، ليتركهم حمدي، ويدخل راكضًا للبيت، اقترب منهم، وقد شعر بثقل في أقدامه، وقد أصابه ضيق مفاجئ، فقال :

- ماذا أتى بك أيّها المحامي ؟

ولِمَ الكل متجمع هكذا عند الباب ؟ .

نظر المحامي إليه، وقد خانته العبرة، ليقطع صوت عفاف كل خيوط الأسئلة في رأس عادل بصوت كالصَّاعقة أسمع مخلوقات البَرّ، والبحر فصرختْ بحرقة : لاااا...علواان...

وضع عفيف كفّية على أذنيه، وأذرف الدُّموع كطفل صغير ليلحق بصوت عفاف أصوات بنات البيت الكبير .

ظلّ عـادل ناضـرًا للمحـامي، ولمْ تطـرف عينـاه، وكأنَّـه يطلـب شـرح لمـا حصـل، وكأنَّه لمْ يسمع شيئًا رافضًا كل ما يسمعه.

فقال المحامي :

- لقد توفى العمّ علوان في حادث مروي مؤسف أثناء عودته إلى هنا .

تسمّر عـادل مكانـه، لتوقظـه ذراع مسـحتْ علـى ظهـره برفـق، لقـد كـان خالـد الـذي امـتلأ وجهـه بالـدُّموع، فلـم يعـرف هـل يواسـي عـادل، أم يواسـي نفسـه، فقـد أحب علوان كثيرًا،

ثم قال عاصم وقد تشنّجت ملامحه، وبحّ صوته :

- ماذا الآن ؟

أننتظر حتى الصَّباح؛ لنعلم معارفنا بوفاته ؟

ردَّ عفيف :

- لا...لا، إكـرام الميّـت دفنـه، لـن ننتظـر إلى الغـد، سنصـلي عليـه، وندفنـه اليـوم وقت صلاة العشاء.

فقال عادل محادثًا المحامي :

- أبلغ كل معارف جدي وأبنائه، ومعارف العمّ علوان رحمة الله عليه بخبر وفاته، بأنّنا سنصلي عليه في المسجد المجاور اللّيلة .

حُمل علوان إلى المسجد بعد أن شهدته عفاف، والبنات، وقبل إقامة الصلاة نظر عفيف هنا وهناك باحثًا عن عبد الصَّمد، ولم يجده، فأمسكه المحامي سيف، وربّت على كتفه، وهمس في أذنه بأنَّ عبد الصَّمد لن يأتي، استغرب عفيف!!
فقال له سيف: يبدو بأنه متعب أو حزين.

فدفعه عفيف، وهو يقول: ما هذا الهراء يجب أن يحضر صلاة وجنازة عمّه. فأمسكه عاصم، وقال :

- لا تلفت أعين النَّاس إلينا، سنبحث عنه، ولن نجده، دعنا نصلي على أخيك، وبعدها نرى ماذا سنفعل.

فوجئ الجميع بقدوم جمع غفير من النَّاس معروفين، وغير معروفين، وقد بدا على أغلبهم الحزن الشَّديد.

مرَّت بضع ساعات بعد الصَّلاة على علوان، ودفنه حيث كان عادل مستلقيًا على ظهر القارب الكبير ،وقد امتلأتْ عيناه بالدُّموع، ليجهش بالبكاء كالطِّفل الصَّغير، وقد انتحب من شدة البكاء، مستغلًا وحدته وسط البحر .

(فقد العزيز)

كلمات لن يعرف معناها إلا من مرَّ بها بالفعل فيشعر صاحبها بصدمة ما قد تصيبه إما بالانهيار، أو بالقوة والجلادة لم ولنْ يتوقعها أبدًا فتستمر صدمته لبعض الوقت سواء كانت لساعات، أو أيام ليسقط بعدها أسيرًا لنوبات من البكاء التي قد تلازمه لسنين طويلة، كلمَّا استحوذ من افتقده على تفكيره.

وحي

العبد المتكبر

في هـذه الأثنـاء كـان صـوت عفيـف يخـترق جـدران بيـت آل صـابر، وهـو يصرخ على عبد الصَّمد بحرقه قائلًا :

- ما الذي تقوله؟ أجننت ؟!

ردَّ عبد الصَّمد بحزم :

- لا تجوز الصَّلاة على ذلك السِّكير .

صرخت عفاف :

- عمك كان يصلي، وأقلع عن الشُّرب في الفترة الماضية .

عبد الصَّمد : أقلع عن الشُّرب، وصلّى؛ لأجل التّركة.

قاطعه عاصم : ليس من حقك أنْ تحاسبه .

فردّ عبد الصَّمد على عاصم باشمئزاز :

- أنتَ أيضًا لم تكن تصلّي، وصلّيتَ من أجل الإرث .

فنظر عاصم إليه ، وهو يقول :

- منذ متى، وأنتَ قليل أخلاق هكذا يا فتى؟

وضـع عفيـف كفّيـه علـى وجهـه، وقـد أصـابته حرقـة فاقـتْ حزنـه علـى أخيـه، فقال بصوت دوى في المكان كلّه :

- أنا لا أعرفك، أنتَ لست ابني ...

وإنْ متُّ فلا تصلي عليّ، صرختْ زوجته سميَّة، وقد أطبقتْ يدها على فمه: عفيف أرجوك .

فدفعها جانبًا، وأعاد جملته :

- أسمعتني يا فتى ؟

أنا متبرئ منك...

ليقاطعه عبد الصَّمد، وهو يصرخ :

- أقسم بأنّي لو عاد بي الوقت، لن أصلّي على ذلك الزنديق.

لتمسك بكتفه ذراع، وتسحبه للخلف، وتلحقها صفعة أحرقتْ وجهه، حتى ترنَّح، ووقع من شدّة الألم، ليدوي صوت سمية بالصُّراخ : ماذا فعلت ؟

ويلحق به صوت عفاف : كيف تجرؤ على لمسه ليس من شأنك التَّدخل؟!

ليقاطعها عاصم بصوت رزين محاولًا تهدئة الأمر:

- ليس من حقك يا عادل...

لكن ذراعا عادل شدّتا عبد الصَّمد بهمجيّة، وكأنَّه لم يكنْ يسمع أحد فظلّ يسحب عبد الصَّمد إلى خارج البيت الذي بدوره حاول الفكاك منهما فقد بدا له كأذرع الأخطبوط .

حاول حمدي التَّصدي لعادل؛ ليدفعه عفيف بعيدًا وسط صدمة الجميع !

ليحمل عادل عبد الصَّمد بشراسة إلى خارج البيت، أغلق عفيف الباب خلفهما؛ ليمنع الجميع من اللّحاق بعادل، فأجهشتْ سميّة بالبكاء، محاولة اللّحاق بابنها، ليمنعها عفيف عن الخروج قائلًا:

- دعوه .. فمن لا يربّيه أهله... يتربّى على يد الغريب... ومثل ما لم يقدر أبي على تربيتنا، أنا أيضًا لم أقدر على تربية هذا العاق .

في تلك الأثناء كان عبد الصَّمد يصرخ في وجه عادل، وهو يحاول ردّ الضَّرب لعادل، لكن قواه خارتْ من همجيّة عادل، فصرخ في وجهه بشراسة :

- أصدقتَ نفسك بأنَّك من عائلتنا ؟

أنت لقيط من الشَّوارع ، فكيف تسمح لنفسك بأنْ تمدّ يدك على أسيادك؟

ظلّ عادل صامتًا، فلم يفتح فمه منذ أن رآه عبد الصَّمد، وقد بدا لعبد الصَّمد مرعبًا، فعيناه الغائرتان اختبأتا في ظلام دامس تحت جبينه الذي سطع

مـن أشـعة ضـوء القمـر كـان جبينـه معقـود في خـط عمـودي مسـتقيم، يصـرخ بغضب، وكأنَّه قاتل مأجور يرتدي نظارة مرعبة .

مرتْ دقـائق، ليصـمت عبـد الصَّـمد بعـد صـراخ أتعـب صـوته، لـيردّ عـادل بهـدوء غير متوقعٍ، إلا أنَّ عروق نحره كانتْ بارزة من شدّة الغضب فقال :

- من تحسب نفسك، لتعاقب مخلوق مثلك؟ !

أنت نفسك لا تعلم إنْ كنت ذاهبًا إلى جنة، أو نار.

ردّ عبد الصَّمد :

- نحن لا نصلي على كفرة .

ردَّ عادل، ومازال محافظًا على هدوئه :

- وهل ارتدّ عمك عن دين الإسلام ؟
- عمي لم يكنْ يصلي، وكان محشّشًا، وسِكيرًا.
- ومن الذي كان يصلي معنا جماعة في المسجد ؟
- وهل صدقت ذلك ؟

إنَّه يصلي؛ ليحصل على المال، أنا لماذا أحادثك أصلًا!

ليس من شأنك أن تتدخّل فيما...

- أنت من ليس من شأنه التَّدخل في حساب، وعقاب الناس.

عمك لم يمتْ وهو على دين آخر، أو وهو يرتكب ذنب ما، فليس لنا شأن بينه وبين ربّه مادام مسلمًا، وقد نطق الشَّهادتين، فما علينا سوى أنْ نغسّل هذا المسلم، ونصلي عليه، ونسلّمه لربّه، فهو أدرى بما في قلبه، أما نحن فليس من حقنا الحكم على عبد مثلنا، قد يدخل الجنَّة قبلنا، وقد نحمل إثمه، وذنبه بالظّن .

كطالب حكم على زميله بالفشل في الاختبار لأنَّه لم يره بعينه، وهو يدرس جيدًا .

وقف عبد الصَّمد، وهو يقول :

- عمي ضيَّع عمره على ما هو تافه، وسيء، رجل قضى حياته في تضييع الأموال، والوقت، رجل لا فائدة من حياته يرمي نقوده هنا وهناك على ما هو معروف، وغير معروف على مسكر، وحشيش، وعربدة، ليصلح الله حاله في أواخر أيامه فجأة !

صرخ عادل :

- وما أدراك أنت ؟

مؤكد أنَّ عمي من أهل النَّار.

فازداد عادل صراخًا :

- اصمت...ليس من حقك الحكم عليه، فأنت عبد مثله، مصنوع من طين، لاحول لك، ولا قوة، وقد تنتهي حياتك في أي لحظة .

صمت عادل قليلًا، ثُمَّ قال، وكأنَّه يفكِّر بصوت عالٍ :

- يا إلهي...

الرَّجل الطَّيب الذي أحسن معاملة اليتيم لا يصلّى عليه!!

بعكسكم تمامًا، أ تعلم بأنَّ ديننا مبني على الرَّحمة، والمعاملة الطيّبة ؟

أتعلم بأنَّ هدّ الكعبة أهون عند الله من كسر النَّفس ؟

وأنتم تتقنون كسر الأنفس يا فتى، لو كان من أصحاب النار دع الله يحرقه، وليس أنت، أدعو لعمّك بالرَّحمة عسى أن يرحمك الله، ثمَّ مرّر يده على معدتِه، وبطنِه، وقد شعر بألم ثُمَّ حمل نفسه ليمشي بعيدًا .

فشعر بحركة من ورائه، فأستمرّ بالمشي حتى اختفى عن الأنظار، ليرى بأنَّ حمدي قد ركض نحو عبد الصَّمد، وقد أمسك بقميصه، وهزَّه بغضب شديد، وهو يصرخ :

- هل جننت ؟ يا لك من غبي!

فمشى عادلن وهو يقول في نفسه : عسى أن يستيقظ من قسوة قلبه .

بعد حوالي أسبوع من وفاه العمّ علوان اجتمع المحامي سيف صباحًا بالعائلة، فبدأ بالحديث قائلًا : أولًا أرغب في أنْ أقرأ عليكم وصيَّة العمّ علوان .

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

السَّلام عليكم جميعًا، لنْ أطيلَ عليكم بالحديث، فأنا لا أحبُّ المقدمات؛ لذا سأدخل في صلب الموضوع، بالنّسبة لأموالي وممتلكاتي التي هي عبارة عن منزلي الكائن في مدينة كريتر، والسُّوبر ماركت الكبير في الشّابات، وورشة صغيرة أملكها لصيانة السَّيارات بالقرب من بيتي، وسيارتي الخاصّة، ومبلغ محترم في البنك، فأنا أوكّل المحامي سيف بمسؤوليّة نقل كل ما أملك لصالح عادل عزّ الدّين النّاصر.

وقف حمدي على قدميه، ووضع عبد الصَّمد ذراعيه على رأسه، وقد شهقتْ عفاف، وذهل الجميع بما فيهم عادل، فصرخ عاصم، وهو يقول :

- ما هذا؟

هذه مؤامرة... كلنا نعلم بأنَّ علوان ينوي أن يورث ماله لأولاد إخوته... ليلحق به صوت عفاف، وهي تصرخ :

- أنتَ لستَ محامي العائلة، أنتَ تعمل لصالح عادل .

هنا صرخ المحامي بصوت عالٍ : أنا محامي الحاج صابر منذ زمن طويل، وأبوكم رجل يعلم ما يفعل، لن يوكل إلي عملًا دون أن يكون متأكدًا من نواياي، والله شاهد على كل ما أقول وأفعل .

فقالتْ عفاف، وهي تبتسم : مؤكد بأنَّ أبي يعلم ما يفعل... فقد جعل رجلًا غريبًا يتلاعب بنا جميعًا ليصرخ عفيف محاولًا إسكات أخته .

فاستكمل المحامي حديثه، وكأنَّه لم يسمعها، فقال :

وباستطاعتكم التَّأكد من هذه الرِّسالة قانونيًا، وإبلاغ الشُّرطة إن أردتم، أنا رجل أعرف حدودي، ولا أخشى سوى الله، واليد التي لا تسرق لا تخاف . لكن دعوني أولًا أكمل قراءة الوصيَّة .

واستطرد بالقراءة قائلًا: إذًا بعد أن كتب السّيد علوان بن صابر عبد الله أنّه يرغب بنقل كل ممتلكاته لعادل عزّالدّين النَّاصر، قال بأنَّ ذلك مرهون بشرط أن ينفّذ عادل وصيّته وهي بأنْ يظلّ يتكفّل بإخراج مبلغ وقدره من ربع مليون إلى نصف مليون على حسب الحاجة كل شهر من الأرباح الزَّائدة للعائلات الأربع التي تكفَّل بها منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.

قاطعه عفيف قائلًا: أي عائلات ؟

فردَّ المحامي سيف : عائلات فقيرة جدًا، منها عائلة بها أم لا تعمل كانتْ تربي خمسة أيتام، وقد تكفّل العمّ علوان بهم، وبتعليمهم، وعائلة بها رجل معاق غير قادر على تربية أولاده بسبب حادث تعرّض له منذ زمن بعيد، وعائلتان بحالات مشابهة، بالإضافة إلى كميّة كبيرة من الصَّدقات التي تعوّد إخراجها بين الحين والآخر .

صرخ عفيف بصوت عالٍ ومكظوم : عبد الصَّمد...

هذا عمّك الزِّنديق الكافر، الذي كان يأتي معنا إلى المسجد لكسب المال، عمّك الزّنديق الذي كان يرمي من أمواله قرابة النِّصف مليون لأناس محتاجين !

هل هذه أفعال رجل يبحث عن المال ؟!

وتقول لماذا هداه الله قبل موته يا عبد الصَّمد!

صمتَ عبد الصَّمد، ولم يفتح فمه .

فصرختْ عفاف :

- ولمَ عادل ؟

لمَ يعطي أمواله له ؟ لمَ ليس لأحد من أهله ؟

فردّ سيف عليها :

- لقد سألته نفس السُّؤال، لكنَّه قال بأنَّ عادل سينفذ ما يطلب منه، وبأنَّ من تربَّى على يد الحاج صابر فهو رجل يعتمد عليه بالفعل .

فقاطعته عفاف قائلة :

- اسمع يا سيف، يجب أن نفحص هذه الورقة .

فقام عاصمن وأمسك بالورقة، ونظر إليها، ثم قال :

- إنَّه هو خط أخي علوان يا عفاف.

- قلتُ يجب أن يتمّ فحصها على يد خبير .

فهزَّ عاصم رأسَه بالموافقة؛ ليرضيها .

ثمَّ قال سيف :

- لقد أخبرته سابقًا بأن يقوم بتسجيل فيديو، لكنَّه تكاسل .

فربّت عفيف على كتف المحامي؛ ليهدئه قائلًا:

- لا عليك يا سيف.

أنت رجل معروف، لكنَّك تعرف أختي .

ليهز سيف رأسَه مؤيدًا: لا توجد مشكلة، فهذا حقكم .

﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٠

هدوء ما قبل الإعصار

وما إن انفرد المحامي بعادل، وخالد حتى مدَّ له رسالة مغلّفة من عمّه علوان.

أخذ عادل الرِّسالة، وقد بدا عليه التَّعب النَّفسي ، والجسدي، فأقترب منه خالد، ووضع ذراعه على كتفه، وهمس في أذنه قائلًا:

- عليك أن ترتاح قليلًا من حمل المسؤوليات .

نظر عادل إلى خالد بوجه عابس، ثم قال :

- سأقرأ الرِّسالة، ثُمَّ أرتاح، أحتاج إلى السِّباحة، ثُمَّ إلى نوم عميق؛ لأنفذَ طلبات عمي علوان رحمة الله عليه .

فقال خالد :

- لا .. ستأتي معي الآن، فلدينا رحلة طويلة في القارب اليوم، ستسبح، وأنا سأصطاد لك السَّمك الطَّازج؛ لنأكل وننام، ثُمَّ تقرأ وصيَّة أو رسالة عمّك، وأنتَ بحال أفضل .

تنهّد عادل وهزّ رأسه بالموافقة، وكانا ذاهبان، لتأتي إليه سمر، وتناديه ثانية، فأمسك بيده خالد، ونظر إليه بغضب ثُمَّ قال :

- لا تذهب صدقني .

فابتسم عادل له، وقال :

- سألحق بك الآن .

فذهب إليها، ورأى بيدها ذلك الكوب، ثُمَّ قال : ثانية ؟!

فقالتْ : ثانية...

فقال : ألن تقولي لي لمَ تسقيني إياه ؟

ابتسمت، وقالتْ :

- سأفهمك لاحقًا، يبدو بأنَّ صديقك لا يطيقني، فالشَّرر يتطاير من عينيه

- لأنَّه يميّز أنواع الأفاعي .

فنظرتْ إليه بخبث، وقالتْ :

- حقًا؟!

فتجرَّع الكأس باشمئزاز، وقال :

- إنَّ ما يجعلني أتقبّل ما تسقيني إياه هو أنّني أشعر بتحسّن عن ما كنت فيه سابقًا.

فقالتْ، وهي مبتسمة :

- هذا لأني لحقتكَ من موت مؤكد، وحملت نفسها، وانصرفتْ ،تاركة عادل غارقًا في بحر من الأسئلة .

- ليقطع حبال أفكاره المتشابكة ذراع خالد وهي تضرب كتفه، فقد عاد بعد أن رأى عادل تائه في ضباب أفكاره، وهو يقول :

- ليتني أعرف التِّرياق الذي يخلّصك من مرضك .

- أي مرض ؟
- سمر.

فتركه عادل، وانصرف نحو القارب، ليلتفت خالد نحو البيت، وقد سمع صوت امرأة تصرخ : حمدي ... حمدي ... حمدي

لا يجيب يا أمي !

صمتَ خالد، ونظر نحو البحر، ليرى عادل وقد سبقه نحو القارب، ثُمَّ قال في نفسه : البيت مليء بالرّجال، وصديقي يكفيه من مصائب هذه العائلة، فإن أخبرته سيركض وراءهم وهم لا يعرفون الجميل، لن أخبره شيئًا، حتى لا يتحمَّل همومهم، وانصرف وراء عادل إلى القارب .

مرَّ بعض الوقت، وها هو عادل مستلقيًا على سطح البحر ليعود بذاكرته عندما أتته سمر أول مرّة، وبيدها أول كوب سقته إياه، فتخيّلها وهي ممسكة بذلك الكأس، وقد مشتْ بخطى حثيثة نحوه.

وكيفَ ،ولِمَ لمْ يرفضه، مع أنَّه لا يأمنها أصلًا!

خاصة، وأنَّ خالد لطالما حذّره منها.

ظلَّ يتذكّر عندما قالتْ له : هل لي بأن أطلب منك شيئًا لأول مرّة ؟

فردّ عليها قائلًا: لماذا ؟

فنظرتْ إليه مترجية :

- لو سمحت .

فقال: ماذا تريدين يا سمر ؟

خالد ينتظرني بالقارب

- أرجوكَ تناول هذا، ومدَّتْ الكوب له .

نظر إليه، ثمَّ قال : حليب ؟!

- نعم، ولا تسأل عمّا فيه، فقط تناوله .

عقد حاجبيه متسائلًا

- وما الذي يجعلني أتناول منكِ شيئًا، وأنا لا آمنكم جميعًا.

- لن أذهب إلى أي مكان إلا عندما تتناول هذا الحليب، ليردَّ عليها بتهكّم :

- اذهبي من هنا يا سمر...

صمت قليلًا، ثُمَّ قال :

- آها إذًا أنتِ من كتب الرَّسالة بأن أتناول الحليب دائمًا. أليس كذلك ؟

- أمم...ربّما

صرخ في وجهها :

- سمر...

ظلّتْ تنظر إليه بعناد، ليسحب الكوب ويتناوله بسرعة، ليتخلّص منها، وفجأة ازداد تعقّد حاجباه، وكاد أن يبصق ما تبقى من حليب في فمه، فصرختْ : ابلعه ابلعه ابلعه، فابتلعه، ونظر إلى الكوب بقرف شديد، ثُمَّ قال :

- ما هذا ؟!

- حليب، وبه زلال بيض .

نظر إليها، وقد تطاير الشّرر من عينيه، وكاد أن يخنقها بذراعيه إلا أنَّه تمالك أعصابه، وقبض كفّيه حتى كاد يكسر الكوب في أحدهما، وعضّ شفته السّفلى؛ لكي لا يضربها، وقد وضعتْ ذراعيها أمام وجهها؛ تحسبًا من أن يضربها، ثمَّ قال بصوت هادر :

- أتهزئين بي يا فتاة ؟

- أقسم بأنّي لا أهزأ بك، لكنّي أفعل هذا الشّيء تحسبًا .

فقال بغضب عارم :

- تحسبًا لماذا ؟

- لشيء ما في خاطري .

فجأة صرخ خالد من بعيد مناديًا : عادل...

فمدّ عادل الكوب لها، ثمَّ قال :

- سأحاسبك فيما بعد .
- لا تحاسبني، فأنا سأسقيك هذا المشروب كل يوم حتى أتأكد ممّا في رأسي، واستدارتْ ذاهبة، رفع رأسه عن سطح الماء وقد عاد من ذاكرته، ثُمَّ نادى خالد الذي كان يصطاد بالقرب منه، ولكن على سطح القارب:
- أتعرف ما فائدة الحليب مع زلال البيض؟

فنظر إليه خالد، وقد وجّه كل حواسه نحوه، وبان على وجهه البلاهة، وقد فتح فمه، ورفع حاجبيه، ثُمَّ قال :

- ما هذا السُّؤال الغبي ؟

ها !

صمتَ عادل، وقد ندم على سؤاله فقال : انسَ ..

فردَ خالد، وقد حصل على مصدر تسلية : أنسى !؟

أتمزح معي ؟

ماذا ؟ أهي وصفة لتبييض الوجه ؟

عضّ عادل شفته السُّفلى بغلّ شديد، وقد ازداد ندمه على سؤاله، فلم يرد على خالد الذي كان كالذي عثر على كنز من سؤال عادل، فقال :

- هيا أخبرني ما هذا البيض، والحليب أتنوي أن تطبخ كعكة، أم ماذا ؟ أرى بأنَّه صار لديك اهتمامات جديدة هذه الأيام...
  اوه أصبحتَ رقيقًا يا فتى !
- إنْ لم تصمت أقسم بأنّي سأصعد إليك، وأعلّقك على عمود القارب وأنت تعرفني يا خالد .
- حسنًا سأصمت...ها.

ووضع كفّيه على فمه مؤكدًا بأنَّه سيصمت .

ثم نظر إلى صديقه ثانية، ولكن بحزن، وكأنَّه كان يحاول تصنّع المرح محاولًا الخروج من واقع الحزن على العم علوان قليلًا .

حلّ اللّيل وقد نزل عادل، وخالد عن القارب، وقد استرخى عادل، ونام ساعتين بعد تناول وجبة رائعة من السّمك الذي طهاه له خالد .

رياح ما قبل الإعصار

بعد ساعات طويلة عاد عادل، وخالد من البحر ليجدا لينا، وسمر، وخديجة وهنَّ يقفن عند باب البيت، وقد بان على وجه لينا كثرة البكاء، فقد تورّمتْ عيناها، وكانتْ خديجة تمسح على ظهرها، وتمسح دموعها هي الأخرى بصمت، أمّا سمر فقد بدتْ قويَّة كعادتها، ذهب عادل نحوهنَّ، ثُمَّ قال :

- ماذا حدث ؟

فردَّت سمر :

- لقد وقع حمدي مغشيًا عليه، وقد أسعفه أبي، وعمتي وعمي وزوجته فقال :

ولِمَ يذهب كل هؤلاء ؟

فقالتْ لينا، وهي تجهش بالبكاء :

- لأنَّه لم يصحُ .. لم يصحُ حتى الآن !

فردّ خالد بقلق، وقد وقف جانبًا :

- أرجوكِ إهدأي...لا تبكي ... سيكون بخير .

فاستدار عادل للوراء نحو خالد، وهو رافع حاجبيه بمنتهى الذّهول، فقد بدا خالد رقيقًا جدًا .

فتظاهر خالد بعدم الفهم، واستطرد بالحديث قائلًا :

- لستُ مستغربًا، فقد بدا عليه الاعتلال، والتَّعب في الفترة الماضية .

سأل عادل، وهو يرفع سماعة هاتفه المحمول :

- ومتى أسعفوه ؟

- تقريبًا منذ الظهيرة، لطالما نصحناه أنا، وأمي بالذَّهاب لعمل الفحوصات، لكنَّه يكره المستشفيات.

فقال عادل، وهو يضع المحمول على أذنه :

- لا تقلقي فقد يكون مجرد إرهاق شديد، أو نقص دم، أو فيتامينات، ثُمَّ قال:

آلو...عم عفيف .. ااا ..

وإذا به يسمع نواح، وبكاء بجانب صوت عفيف الذي لم يستطع الكلام من علو الأصوات بجانبه، فأنهى عادل المكالمة بيد جامدة محاولًا عدم الارتجاف من جراء الصَّدمة، يبدو بأنَّ حمدي قد توفى، أو أنَّ حالته صعبة جدًا نظرتْ إليه لينا بقلق، فنفخ في الهواء، وقال : يبدو بأنَّ التَّغطية سيئة .

فقال خالد لعادل : اسمع ...

سآخذ السمك كله إلى بيتنا، وما إن يصلوا جميعًا بالسَّلامة، سنطهوه أنا وأمي، ونحضره لكم .

شكره عادل، وأعطاه ما بيده، لينصرف خالد، وهو يشير له بأن يتّصل به ما إن يحتاجه .

فطلبتْ سمر من خديجة أخذ لينا إلى الدّاخل؛ لترتاح، ريثما يأتون .

جلس عادل على أريكة خشبيَّة بجانب باب المنزل، فاقتربتْ منه سمر، وهي تنظر نحو الباب قائلة بصوت خافت:

- ماذا حدث ؟

فقال بنفس الصَّوت الخافت :

- لا شيء، وادخلي، وأغلقي الباب خلفك حتى يأتي الجميع .
- حقاً ؟

ولَمَ تيبّس وجهك وأنتَ ممسك للهاتف ؟

فتأفف قائلًا:

- لا تخبريهن .

فقالت بحماس :

- نعم نعم ...لن أخبرهنَّ .
- أعتقد بأنَّه توفى، أو أصابه شيء سيء للغاية، لقد سمعتُ أصوات نواح .
- إذًا لقد قتلتْ عفاف ابنها .

عقّد حاجبيه، وتوسعتْ حدقتا عينيه لينظر إليها مباشرة، ويرى تلك القطة، وقد تحوّلتِ عيناها إلى عيني أفعى تتحدّث بدم بارد، فقال :

- ما الذي تتحدثين عنه ؟ !!

فسمعا صوت قدوم سيارة عاصم، فقفزتْ سمر؛ لتدخل إلى البيت، فرفع عادل ذراعه أمامها مانعًا إياها من الذَّهاب، وهو يقول :

- ماذا !

سترمين قنبلة في وجهي، وتهربين هكذا ؟!

فهمستْ له :

- سأذهب الآن، وسأشرح لك كل شيء لاحقًا، لا تخبر أحدًا.

ثم طارتْ إلى الدَّاخل .

فذهب عادل نحو السَّيارة، ليرى عفاف، وقد بان على وجهها الفزع، والإرهاق، وكان يبدو على عينيها تورم واحمرار من شدّة البكاء، كما بدا على الجميع نوع من الانهيار، فقال لعفيف : ماذا حدث ؟

رد عفيف، وهو ينظر إلى أخته :

- حالته صعبة جدًا، فانفعل عادل قائلًا:

- تمسّكوا بحبل الله، سنعالجه حتى لو اضطرينا للسّفر .

اقتربت منه عفاف، وواجهته بوجه عابس:

- أتمزح يا هذا ؟

ليس بإمكاننا السَّفر إلى أي مكان، ونحن لم نأخذ إرثنا بعد، فكفاك تمثيلًا وكذبًا .

- كم تريدين ؟
- فابتسمتْ بلؤم وضحكتْ .

فردَّ بجديّة :

- نصف مليون دولار ستكفيك؛ لحجز تذاكر والسَّفر السَّريع إلى الهند، أو أي مكان، والبدء في العلاج، وسأكون على تواصل معكم إنْ احتجتِ أي شيء لا تهتمي يوم أو يومين، وسأقوم بتحويل الأموال إلى حسابك مباشرة .

برزتْ أعين الجميع، فقد كانوا مصدومين، وفي حالة ذهول غير معهود بما فيهم البنات اللاتي كنَّ واقفات على الباب .

فصرخت عفاف : كفى .. هل من المعقول أن يعطيك أبي مبلغ كهذا ؟

فردَّ عادل بعلو صوته :

- أتريدين أن تسافري بابنك، أم تضيعين وقته ؟

ظلّتْ تنظر إليه بوجه شاحب، وكأنَّها بلا روح .

فأمسك عادل بكتفيها، وهزّها، وهو يصرخ : أقسم بأنّي سأحول باسمك الأموال بأسرعِ وقت، فضربتْ كفّيها بوجهها بقوة، ثُمَّ انهارتْ على الأرض قائلة:

- لِمَ تفعل معي هكذا ؟ لِمَ يا عادل ؟

فصرخ هو الآخر : ولم تضيعي الوقت بالصُّراخ، وابنك في خطر ؟!

فأمسك عفيف بكتفه قائلًا:

- لقد ماتَ حمدي.

وأختي تعلم هذا لكنَّها ترفض أنْ ننطق بذلك .

وقعتْ لينا مغشيًا عليها، وتجهش خديجة بالبكاء، وهي تحاول إسنادها هي وسمر.

تيبّس عادل مكانه من الصَّدمة، فصرختْ عفاف ثانية، ولكن بصوت أعلى هذه المرّة :

- أنا أكرهك يا عادل، أنتَ عقابي في الدُّنيا، لقد وضعتُ لك السُّم، ليتسمّم ابني !

كيف ؟

كيف أسمّمك، ويتسمّم ابني كيف ؟

أخبرني ؟

أصابه الذُّهول ممَّا سمع، ولكنَّه رفع رأسه، ليرى بأنَّ بعض الجيران قد تجمعوا بما فيهم خالد، و المحامي الذي أحضر بدوره العمّ مختار، وضابط شرطة لإنهاء إجراءات وفاة حمدي .

الظّلم هو ضريبة ستدفعها عاجلاً أم آجلاً برضاك،

أو رغمًا عنكِ فأنت على موعد وشيك مع الحق .

وحي

إعصار من الحقائق

دخل عادل إلى البحر بملابسه، وهو في حالة صدمة فاغتسل من أعلى رأسه، وتقرفص على قاع البحر، وظلّ يأخذ كمية من الماء بكفّيه، ويصبّها على وجهه، ورأسه كالمجنون، وخالد ينظر إليه من بعيد بقلق .

ثم وقف فجأة، وفتح ذراعيه لخالد، لينظر إليه خالد برعب .

فصرخ قائلًا :

ما هذا ؟!

وكأنّني في فيلم إجرامي لمخرج مختلّ !

أو رواية لكاتب مجنون!

فاقترب خالد منه ببطء، وهو يقول :

- لقد حذرتكَ من هؤلاء الأفاعي يا صديقي .

فصمتَ عادل، ونظر جانبًا، وتذكّر !

تذكر خالد، وهو يحذِّره من سمر، ثُمَّ تذكَّر سمر، وهي تقول : إذًا لقد قتلتْ عفاف ابنها .

رفع رأسه، ونظر إلى خالد بوجه مليء بالغلّ، وكأنَّه سيرتكب جريمة ما، ممّا أنهى ما تبقى من أعصاب خالد، فصرخ خالد : ماذا ؟

فأنصرف من أمامه كالرِّيح، ليستطرد خالد بالصُّراخ وهو يقول : إلى أين ؟

عادل...

لم يبرِّد موت العم علوان، ليلحق به موت حمدي في أقل من أسبوع واحد.

فكان البيت مليئة بالزُّوار الذين جاؤوا للعزاء، وقد طلب عفيف وعاصم من المحامي تأجيل محاولة اعتقال عفاف التي كانت في حالة انهيار تام .

فجلس البنات بجانب لينا التي صعب عليها استيعاب ما حدث، كان البيت كلّه في حالة شلل تام، ماعدا شخص واحد ألا وهو.. سمر!

التي كانتْ تعمل مع سميّة زوجة عمّها عفيف، وخديجة في تقديم القهوة للحضور أيام العزاء الثَّاني للبيت الذي أصابه النّحس .

دخل عادل إلى غرفته؛ ليبدّل ملابسه، فوجد ورقة كتب عليها : بتُ أعلم بأنَّ النَّاب الأسود معك، وأنتَ مقتول في أية لحظة بلا شك .

نظر عادل حوله، ثُمَّ أخذ حمامه، وخرج بسرعة من غرفته .

مـرَّت السّـاعات ليصـبحوا في منتصـف اللّيـل، فجلسـتْ خديجـة بجانـب لينـا، وهي تقول لسمر: عليها أنْ تتناول شيئًا، فمعدتها فارغة .

فقامتْ سمر، وهي تقول : سأحضر بعض الخبز بالعسل فهي تحبّه .

لتهمس لها لينا بالرَّفض، فردَّت سمر : بلا ...ستأكلين .

وذهبـت للمطـبخ، ولكـن وهـي في طريقهـا هجمـتْ علـى وجههـا ذراع غطّـت نصـفه، وضـغطتْ علـى فمهـا وذراع أخـرى لفـتْ يـديها بسـرعة خاطفـة بهمجيّـة، حاولتْ أنْ تصرخ، وتفلت، لكن دون جدوى .

لتجـد نفسـها ملقـاة علـى الأرض في غرفـة صـغيرة مـن غـرف المنـزل الكبـير، غرفـة منزويـة في الأسـفل، كانـت شـبه مظلمـة، نظـرتْ إلى الخلـف، لـترى ظـلَّ رجـلٍ، دخل إلى الغرفة، وأغلق الباب من خلفه، وأشعل إضاءة خفيفة .

فصرختْ : يا إلهي .. عادل !!

فجلـــس علـــى الأرض بجانبهـــا، وقـــد اتكـــأ علـــى دولاب قـــديم . تنهـدتْ بصـعوبة، ودمعـتْ عيناهـا، فقـد شـعرتْ بالرَّهبـة الشَّـديدة، ثُمَّ قالـتْ : الحمد لله فالتفت إليها باستغراب:

- حقًا اطمأن قلبكِ عندما رأيتني ؟

فقالتْ، وهي تتمالك أعصابها :

- مؤكد أنت آخر شخص قد أخشاه، وآخر شخص قد يؤذي نملة .

فنظر إليها وقد استفزته بالفعل، فقال :

- حقًا؟

فردّت بسرعة؛ كي لا تغضبه :

اسمع، أنا أعلم بأنَّك تريد معرفة ما حدث أليس كذلك ؟

- نعم.

فقالتْ، وهي تقف على قدميها :

- حسنًا دعني آخذ الطَّعام إلى لينا وغدًا صباحًا...

فوقف أمامها كالغوريلا بوجه لم تعهده من قبل، فجلست على الأرض ثانية، وقد تملّكها الرُّعب، وهي تقول :

- حسنًا، لنقل بأنّي سأظل هنا لبعض الوقت، ماذا سيقولون لو بحثوا عنّي ؟

فردّ ببرود، وهو يجلس ثانية :

- لا يهم... تحدَّثي الآن .

- حسنًا.

أنتَ تعلم بأنَّ عفاف أرادتْ قتلك بالسّم ،لكن أتعلم منذ متى ؟

- لا.

- لا.
- منذ فترة بسيطة من إصدارك لقرار طبخها للطَّعام...
- كيف ؟ ..

أولًا عفاف تصبّ الطّعام للجميع، كما، وأنَّها لو كانت سقتني السُّم سابقًا لكنتُ في عداد الأموات منذ فترة من الزَّمان!

- ذلك صحيح لكنّي لاحظتُ بأنَّها كانتْ تهتمُ بطبقك أنتَ بشكل خاص، فقد كانتْ تمسحه مسحة خفيفة بكميّة لا تذكر من السُّموم الآكلة؛ لتتدهور صحتك يوم بعد يوم دون أن يشك أحد في الأمر .

فصمت لبعض الوقت، ثم قال : لهذا نصحتني في الرِّسالة التي وجدتها في غرفة جدي بشرب الحليب ليل نهار .

فهزّتْ رأسها مؤيدة لكلامه .

فعدل جلسته ثُمَّ سألها :

- وما قصة الحليب والبيض ؟

فردّتْ بكبرياء : الحليب والبيض يمنعان الجسد من امتصاص السُّموم الآكلة، وهذا ماكنت تعلم بأمره فقط .

فعقد حاجبيه، وسألها ثانية :

- وما الذي لم أكن أعلم بأمره ؟

ردّتْ بنفس الثِّقة : بأنّي كنتُ أضع لكَ الفحم النَّباتي النَّشط بين طعامك؛ كي يقوم بنفس عمل الحليب والبيض .

نظر إليها ثانية، ثُمَّ قال :

- وما أدراك بنوع السُّموم أنَّها آكلة ؟
- لقد سمعتُ حمدي، وعبد الصَّمد عدة مرَّات وهم يخططون لعدّة مصائب، تنهّدت، ثُمَّ نظرتْ إليه بحماس، واستطردتْ قائلة :
- أولًا علمتُ من أحاديثهما أنَّ عفاف كانتْ تبعث حمدي؛ لشراء الزّرنيخ، والرَّصاص، وبأنَّها كانتْ تطبخها بنفسها من التُّراب، وبعض المواد الأوليَّة .

جنّ عادل، وقد أصابه الضِّيق الشَّديد لكلام سمر، ثُمَّ قال : _وما الذي حدث لحمدي ؟

نظرتْ للأرض، وصمتت قليلًا، فنظر إلى وجهها، ثُمَّ قال : بنت ؟ فرفعت وجهها بحزم شديد، وقد نظرتْ إلى عينيه مباشرة، ثمَّ قالتْ :

- لقد كنتُ أبدِّل بين طبقك، وطبقه .

توسّعت عيناه، وقد انفعل : لمَ ؟

فقالتْ بحرقة :

- ألا تعلم بأنَّ عمي علوان مات مقتولًا ؟

تصلّب مكانه للحظات، ثُمَّ رجع للوراء، وقد وضع كفيّه على رأسه، فقد أصابه الصُّداع الشَّديد .

فاقتربتْ منه، وهمستْ : حمدي وعبد الصَّمد قررا قتل عمي علوان؛ لأنَّه قد وعد بأنَّه سيكتب نصيبه لهما بالكامل بعد موته .

فألتفت عادل إليها : وعد بأنَّه سيكتب المال لهم فقتلوه ؟ !!

- قتلوه لأنَّه اكتشف بأنَّهما كانا يستغلان ثمالته، وشربه للحشيش؛ ليسحبا من أمواله دون علمه بشكل دائم، ومنظّم لسنين طويلة، كما أنَّ صرفه الكبير للأموال كل شهر جعلهم يقرّران قتله بسرعة، وكأنَّ أمواله ستنتهي بالرّغم من أنَّها كانتْ في ازدياد، وربح لم ينتهِ رغم توقعات الجميع بأنَّه سيفلس أمواله بسرعة .
- لم تنتهي لأنَّها كانتْ تذهب في الصَّدقات .

نعم لكن لا أحد كان يعلم بذلك، عمي المسكين كان يبحث عن الخير فقط .

صمتَ قليلًا، وتذكّر عندما كان عبد الصَّمد يصرخ بأن عمه رجل زنديق كافر، وعندما رأى حمدي، وقد ركض نحو عبد الصَّمد حين أمسك بقميصه، وهزّه بغضب شديد وهو يصرخ : هل جننت ؟.. يا لك من غبي!!

فقال بصوت خافت : غبي لأنَّه سيكشفهم ؟

فقالتْ سمر بفضول شديد : من الغبي؟

فالتفت إليها بوجه شاحب، وقال : هل يوجد صدمات أخرى ؟

تنهّدت بيأس، ثم التفتتْ إليه ثانية، وقالتْ بحماس : بالمناسبة لقد أرادوا قتل المحامي، وصديقك خالد بنفس اليوم لكنَّهم أتوا قبله، ولم يركبوا السَّيارة معه.

- كفى ...هذا كثير عليَّ... كثير جدًا .

فرجعت للوراء لتجلس بصمت .

التفتَ إليها، ثُمَّ قال :

- ما هذا ؟

ما كل هذا ؟

فردّت بصوت خافت : أقسم بأنّ ما أقوله صحيح

فنظر إليها بشتات، ثم قال بيأس :

- اذهبي ...اذهبي الآن.
- فقالتْ بغضب :
- لن أذهب إلى أي مكان، حتى أعرف ماذا سنفعل .

فنظر إليها بغضب دون أن يردّ عليها .

فوقفت؛ لتذهب وقد بدا عليها الغضب، فقد قتلها الفضول لمعرفة ما في رأسه .

صمتَ قليلًا، ثُمَّ قال : سمر .

التفتتْ للوراء بحماس، فأشار إليها بالمجيء، فركضتْ نحوه بحماس، لتجلس على الأرض كالأطفال قائلة : نعم ؟

نظر إليها باستغراب، ثمَّ قال :

- لماذا لم تحذري العمّ علوان ما دمتِ قد علمتِ بمؤامرة حمدي وعبد الصَّمد ؟
- لقد حذرته، وأعطيته الدَّليل .
- ولِمَ لمْ يأخذ حذره ؟
- بلا...

ما إن علم بمخططهم الشّيطاني، حتى غيّر الوصيَّة باسمك أنت بدلًا عنهما، لكن المصيبة أنّنا لم نميّز طريقة القتل التي اتفقوا عليها .

تنهّد قائلًا :

- وما هو الدَّليل ؟

فقفزتْ واقفة، وقالتْ :

- لن أخبركَ حتى تخبرني بما في رأسك .
- أقسم بأنَّ رأسي قد تسمّم تمامًا من بخّك لأخبار أصابتني بشلل تام .
- أمم .. حسنًا سأذهب الآن
- ثم أخرجَ ورقة من جيبه، وهو يقول :
- هذا ليس نفس خط رسالتك التي حذرتني فيها بشرب الكثير من الحليب .

فمدّت يديها، وأخذتها بحماس، ثُمَّ ركضتْ باتّجاه الضَّوء الخافت، وهي تنظر إليها كمحقّق في قسم شرطة، ثُمَّ قالتْ : _لا .. لكنّي أعرف هذا الخطّ، لقد... رأيته عدّة مرّات .

فقال، وهو يقف على قدميه :

- إنْ تذكرتِه أخبريني.

ومدّ يده، وأخذ الرِّسالة، و طلب منها الذَّهاب .

اقتربتْ منه، وقالتْ :

- هل حقًا معك النّاب الأسود ؟
- نظر إليها، وقال :

- اذهبي يا سمر

لكنَّها ردّت بانفعال فضولي : أ تمزح .. !

نحن في رسالة تهديد بالقتل .

- سأخذ حذري.

اذهبي الآن .

ظلّتْ تنظر إليه بعبوس، وهو يخبئ الرِّسالة في جيبه فيما كانتْ تنصرف ببطء .

ليلة بلا قمر

نفخ في الهواء، كمن يطلق نارًا من صدره، وهمَّ بالخروج من الغرفة، وهو يمشي ببطء جراء الصَّدمات المتتالية التي كانت ترميه بها سمر واحدة تلو الأخرى، فصعد للأعلى؛ ليأخذ من غرفته معطفه الخاص، فقد نوى الخروج لأمر في رأسه، وتوقّف للحظة، فقد شعر بحركة غريبة في آخر الممر، فتسحّب بأطراف قدميه بسرعة؛ محاولًا الوصول، فقد بدا له شبح كالطَّيف الأسود بالقرب من غرفة عبد الصَّمد، لم يسعفه النَّظر فالممرّات كانتْ شبه مظلمة، فاقترب بسرعة، وهجم على ذلك الشّيء، ليخرج منه صوت رقيق نظر إليه بعين خائفة، ومريبة بنفس الوقت !

فقال بغضب عارم، وهو يجزّ عن أسنانه : سمر!!!

فقالتْ، وهي تلفظ أنفاسها هي الأخرى :

- تبًا لك...سأموت من كثرة المخاوف اللّيلة.

فصرخ بصوت غير مسموع : ماذا تفعلين هنا ؟

فهمستْ : عبد الصَّمد غير موجود، دعنا نضع له هذا الجهاز، ونفتّش غرفته .

فأمسك بشيء صغير، وهو يقول : ما هذا ؟

- جهاز تنصّت .

نظر إليها باستغراب :

- من أين أحضرته ؟

فقالتْ بحماس :

- اشتريته من صديقة يعمل خالها في الأمن .

نظر إليها، وكأنَّه ينظر لمجنون، فقال :

- لا...أنا لمْ أتوقعك هكذا أبدًا .. هيا انصرفي إلى غرفتكِ الآن يا سمر .. الآن.

نظرتْ إليه بكسرة نفس، وانصرفتْ إلى غرفتها .

فدخل إلى غرفته، هو الآخر، وأخذ معطفه، وهمَّ بالخروج .

كان الوقت متأخرًا من اللّيل، فقد أصبحتْ قرابة السّاعة الثّالثة بعد منتصف اللّيل، ظلّ يمشي بين النَّسمات الباردة على الرّمال، ثُمَّ خلع حذاءه، واتّجه نحو قاربه الكبير فبدأ يمشي بين الأمواج في ظلام دامس، وما إن اقترب من القارب حتى رأى أعمدة قد خرجتْ من البحر، كانوا مجموعة من الرِّجال الذين هجموا عليه هجمة واحدة، فانهالتْ عليه الضَّربات بالعصيّ، والرّكلات، ثُمَّ قاموا

بتغطيسه في الماء، حتى ضاقتْ أنفاسه، فرفع عن الماء، ليسمع صوتًا يقول له : أين النَّاب الأسود يا عادل .

هنا تصلّبتْ ملامحه تمامًا، فقد تذكّر هذا الصّوت، كان نفس الصّوت الذي ضربه، ورماه على طريق البريقة السّريع عندما أُهينتْ كرامته بالضَّرب، والطَّرد من البيت، وكيف له أنْ ينساه !

لقد كان الصّوت الذي لا يمكن نسيانه أبدًا، تذكّر جملته وهو يقول :

- إياك أن تضايقهم، وإلا قُتلت، ودُفنت دون أنْ يُعرف لك قبر يذكر، ليغمر ذلك الشَّخص وجهه بالتُّراب، لقد عاد ثانية عاد ليلقى حسابه .

فجأة تلاشتْ آلام عادل، لتُستبدل بحرة النّفس، فوقف، وأمسك بنحر الرَّجل، وبدأ ينهال عليه باللّكمات، و أمسك بوجهه، وضربه بجبينه، ليكسر به أنف الرَّجل، فوقع مغشيًا عليه في الماء، لتأتيه العصيّ من كل حدب، وصوب، فأمسك بإحداها وبدأ يضرب بها من حوله بشكل عشوائي وهمجي إلا أنّ كثرتهم جعلته ينهار من شدّة الضّرب .

فسمع صوت عبد الصَّمد يقول :

- هيا هيا اسحبوه بسرعة إلى السّيارة، يجب أن يعترف عن مكان النَّاب الأسود، ثُمَّ افعلوا به ما تريدون .

وما إن سحبوه حتى جاء خالد، وهو يصرخ بأعلى صوته وبدا أنّ بيده عصا، وبيدّه الثّانية ساطور كبير، فقال : أقسم بأنّ صديقي لن يتحرّك من مكانه إلا على جثتي، ولن أموت حتى أخذ منكم أكبر عدد معي إلى القبر.

فتهامسوا، وحملوا كبيرهم الذي وقع مغشيًا عليه من ضرب عادل له، وانصرفوا سريعًا، فقد خارتْ قواهم من ضربات عادل الذي أصابهم بطريقته الهمجيّة، كما أنّ عبد الصَّمد قد ابتعد كثيرًا ما إن رأى خالدًا قادمًا بالعصا، والسَّاطور الضّخم، وخاف أن يتعرّف عليه، فهرب بعيدًا بمعطفه الكبير بين ثنايا ظلامٍ دامس.

رفع خالد صديقه محاولًا الاطمئنان عليه، وسانده نحو بيته قائلًا: آمن مكان لك الآن هو بيتي يا عادل .

فطبّبه، وبقى ينظر إليه، وهو ممتّد، ليرن هاتف خالد المحمول، فقال عادل :

- صوت الرّنين يزيد صداعي يا خالد، فحمل خالد نفسه ورفعه ليرى رقم العم مختار فخرج إلى غرفة أخرى .

ليسأله العم مختار بقلق : خالد يا بني سامحني لقد اتصلت بك في الفجر لكنّي كنتُ نائمًا، ورأيتُ في حُلمي وجه الحاج صابر، وقد بدا متعبًا، وهو يقول لي : عادل...

فاتّصلت به لكن هاتفه مغلقًا، فهلّا طمأنتني يا بني .

- لا تقلق، فهو يرتاح في غرفتي الآن، وأعتقد بأنَّ هاتفه قد خرّبه البحر.

فقال العم صابر بصوت مبحوح : ماذا حدث ؟

- لقد تمَّ ضربه عند البحر، ويبدو بأنَّهم أرادوا خطفه، لكنَّه الآن بخير، وأنا معه، ولن أتركه أبدًا .

فأنهى العم مختار المكالمة، ثُمَّ وضع كفّه على صدره، وقال: عادل...

وقف وأخذ مفاتيحه، وارتدى قميصه، وانطلق نحو الباب، ففتحه لكنَّه شعر بطعنة في قلبه فخارت قواه عند الباب .

ستوقعك الحياة كثيرًا

لكن إياك أنْ تقع

وحي

ردّ الدَّين

وما إن عاد خالد إلى الغرفة، حتى وجد بأنَّ عادل قد اختفى، فجنّ جنونه، وخرج باحثًا عنه دون جدوى في ذلك الحين كان عادل يتسحّب بين أروقة البيت، ليسمع صوت البنات، وهنّ في غرفة لينا، ويبدو بأنّ سمر تسامرهنَّ، ولم تعدّ لمخدعها بعد فانتهز الفرصة، وانطلق إلى غرفتها، ففتح الباب بحرص شديد، وبدأ بالبحث هنا وهناك ليجد درج مقفل في دولابها، فوجد مشابك شعرها عند المرآة، وحاول فتح الدُّرج المقفل .

في هذه الأثناء كانت سمر تتثاءب فيما كانتْ خديجة قد غطّتْ في نوم عميق بجانب لينا، وسمر، فقالتْ لينا : اذهبي ونامي يا سمر .

- لن أذهب إلا إذا أكلتِ الطَّعام

فتأفّفتْ لينا، لتتكئ سمر بجانبها بعناد .

فُتح الدّرج المغلق، وبدأ يقلّبه برفق، وجد علبة حمراء مخمليّة كبيرة، ففتحها، ووجد بعض الذّهب، والمجوهرات وبجانبها علبة صغيرة سوداء، فتحها فوجد ثلاثة فلاشات وذاكرة تليفون، وقارئ ذاكرة، فأخذ العلبة السُّوداء الصَّغيرة بما فيها، وأغلق الدُّرج لكنَّه كتب بعض الكلمات في ورقة وتركها في الدّرج وخرج .

عـاد عـادل إلى بيـت صـديقه، وهـو يعـرج فـرآه خالـد، وقـد بـدا غاضـبًا جـدًا، فقال له عادل:

أريد الحاسوب المحمول، اعطيني إياه، واتركني لوحدي .

صمتَ خالد، وكبتَ غضبه، وأعطاه ما يريد وترك له الغرفة .

دخلـتْ سمـر غرفتهـا بعـد أن تناولـتْ لينـا لقمتـين؛ لتقنـع سمـر بالـذَّهاب، فقـد كانتْ متعبة جدًا، فما كان منها إلا أنْ نامتْ كالطِّفل، ولم تلحظ شيئًا.

في هـذه الأثنـاء بـدأ عـادل بفـتح الفلاشـات واحـدًا تلـو الآخـر، فلاحـظ بـأنّ أغلبهـا كانـت عبـارة عـن صـور شخصـيّة لفتيـات إلا أنّـه حـاول ألا يركّـز النّظـر إليهـا أبـدًا احترامًـا؛ لتحجّـب البنـات، فكـان يخـرج الفلاشـة، ويثبّـت الأخـرى بسـرعة، ثمَّ جـرّب الـذَّاكرة الصَّـغيرة، ليجـد ثلاثـة ملفـات صـوتيّة mp3 فبـدأ بتشـغيل الأول، ليسمع بعض الأصوات المعروفة فابتسم قائلًا : شكرًا يا سمر.

بـدأ ضـوء النَّهـار بـالبزوغ، فـتح خالـد عينيـه، لـيرى عـادل واقفًـا، وقـد ارتـدى ملابس خالد الخاصة .

فرفع رأسه، وقال : ما هذا ؟ كم السَّاعة ؟

- ماتزال الخامسة والنِّصف، أنا لمْ أنمْ أصلًا !

فمسح خالد عينيه، وفتحهما جيدًا، ثُمَّ قال : أوه...

هذه ملابسي ...أ تسرقني، وأنا نائم ؟

فنظر إليه عادل بكبر فقال :

- اغسل ملابسي، وكويّها جيدًا، وهمّ بالخروج، وهو يعرجِ.
- إلى أين يا هدهد الجنائن ؟

فنظر عادل إليه قائلًا:

- لديّ أشياء يجب عملها .

فتبعه خالد بملابس النّوم، وهو يهمّ بالخروج، فقال له :

- حسنًا، انتظر دقيقة؛ لأبدّل ملابسي فقط .

فقال عادل، وهو يمشي خارجًا : عدْ إلى نومك، أنا بخير الآن.

فدخل خالد بسرعة، ثمَّ عاد وبيده سترة، فارتداها خارجًا، وهو يركض نحو عادل في العراء، فقال :

- سامحك الله لقد خرجتُ حافيًا.
- لا يهم، لن أذهب بعيدًا، سأدخل إلى البيت، ثمَّ أذهب إلى القارب، وريثما أذهب إلى البيت، اذهب أنت، وأخرج شريحة هاتفي، وجرّبها، فإن لم تعمل اتصل بالمحامي سيف، واطلب منه أن يشتري شريحة وهاتفًا نقالًا، أي هاتف يفي بالغرض، ريثما أُخرج شريحةً بديلة لرقمي إنْ لم تعملْ .
- لن أتركك تدخل ذلك البيت، فهو غير آمن .

- لن يؤذيني أحد فيه، وقد بدأ النَّهار بالبزوغ يا خالد .

فصرخ خالد بعلو صوته :

- أجننت ؟ تدخل إلى بيت الزَّواحف هذا بعد ما حدث ؟ ، وأشار إلى البيت، ليتسمّر مكانه ما إن رأى لينا واقفة على الشُّرفة بوجه شاحب، وحزين .

فأمسك بسترته البالي، وسحبها للأسفل حتى كادتْ تصل إلى ركبتيه ! ودعس رجله الحافية، وغطّاها بالأخرى، ثُمَّ أمسك برأسه محاولًا ترتيب شعره، لقد أراد أن يحفر الأرض، ويختبئ فيها، فقد ظهر كالطِّفل الصَّغير بملابس مهترئة في يوم العيد .

نظر عادل إليه، وكأنَّه اكتشف أمره بابتسامة، فالتفت خالد نحوه، وأنصرف إلى البيت بسرعة، ليتوجّه عادل هو الآخر لبيت آل صابر، فدخل، وهو يتسحّب فيبدو بأنّه قرّر أن يتحوّل إلى لص في بيته !

فانطلق إلى باب غرفة سمر، وطرقه بصوت خافت، وهو يتلفّت يمينًا ويسارًا، فتحت عينيها على الطّرق الخافت، وهي تسمع أحدهم ينادي باسمها، فقفزتْ روح المحققين فيها، وهوت إلى الباب، وأمسكتْ به وفتحته، لترى عادل الذي كان يلتفت نحو الأرض، متوقعًا تهورها، فأغلقتْ الباب ثانية، لتفتحه بعد قليل، وقد وضعتْ الشّال على رأسها .

- هل لكِ أن تدخليني دقيقتين ؟

فهمست :

- هل جننت؛ لأدخلك غرفتي ؟!

ما هذا ماذا حدث لك ؟

- أنا بخير...

اسمعي، لقد كنتُ هنا منذ ساعات .

ففتحت فمها بذهول، ثمَّ قالتْ :

- كيف تجرؤ ؟!

ومتى دخلتَ أصلًا ؟

انتظر من فعل بك هكذا ؟

- دخلتُ عندما كنتِ أنتِ، وخديجة، مع لينا بالأمس .

فالتفتت نحو الدُّولاب ثمَّ نظرت إليه، وقد ناولها العلبة السُّوداء، لتلتفت إليه بذهول شديد : كيف ؟

- لقد أخذتُ التّسجيلات الصّوتيّة فقط فوضعتْ كفّها على فمها...

فاستطرد بسرعة : وأقسم بربّ العرش أنيّ لم أركزْ النّظر على أي صورة لأي أحد، كل ما فعلته هو أنيّ كنتُ أفتح فلاشة، وأغلق الثّانية بسرعة، حتى وصلتُ للتّسجيلات.

ثمَّ قالتْ، وقد نزلتْ دموعها :

- أنا أصدقك، ولقد قلتُ لكَ سابقًا بأنيّ بتُّ أعرف أخلاقك جيدًا، لكن...
- لكن ماذا ؟

فبكتْ، وأجهشتْ بالبكاء، فدخل إلى الغرفة، ثمَّ سألها بهمس: ماذا حدث؟ فقالت أنا لم أخبرك بكل شيء .. أنا مثل عمي علوان، صمت قليلًا ثم قال : لم أفهم شيئًا ؟

- أخرج الآن، وسأحادثك لاحقًا .
- إذًا أعطيني رقمك، وسأرن لكِ لاحقًا؛ لتحفظي رقمي في حالة احتجتِ إليّ، ولا تمشي لوحدك أبدًا حتى في البيت، ابقي دائمًا مع البنات؛ تحسبًا، فعبد الصَّمد أصبح كالكلب المسعور، وكفي عن الحفر وراءه، واجلسي هادئة، فلو علم ما تعلمين، سيقتلك حتمًا .

نظرت إليه بقلق، وقالتْ :

- هل هو من فعل بك هكذا ؟
- لا تكثري من الكلام، وافعلي ما أقوله لك .

فأمسكت برقبتها، وهي تبلع ريقها، وهزّتْ رأسها بالموافقة .

خرج من البيت، ولقى خالدًا بانتظاره، فانطلقا إلى القارب، وصعدا إليه بحذر شديد، وهما يتفحصانه.

فقال عادل :

- مع إنّي أعلم كم عبد الَّصمد غبي، لكن ربّما يدسّون هو، أصحابه المرتزقة أي شيء هنا أو هناك.

ردّ خالد :

- يا صديقي أصبح الأغبياء هم الذين يفلحون في هذا الزَّمن.

فدخل عادل إلى القمرة الصَّغيرة، وأخرج منها ظرف كان هو رسالة العمّ علوان التي أعطاها المحامي لعادل منذ يومين .

- كيف أمنتها هنا ؟ ماذا لو كانوا وجدوها ؟

فردّ عادل بثقة :

- أنا وجدك صابر نخبئ أشياءنا بطرق لا يعلم بها سوى الله تعالى .

فانطلقا بسرعة إلى بيت خالد؛ ليجلس عادل لوحده في غرفته، بعد أن تناولا الإفطار، ففتح رسالة العمّ علوان التي كتب عليها :

"ابني عادل... لقد أوقعتَ نفسك في الفخّ يوم قلتَ بأنَّك تراني كوالدك، فهي المرَّة الأولى منذ سنين طويلة أشعر بأنَّ هناك من يهتم بأمري، ولو قليلًا..."

أخذ عادل نفسًا عميقًا ،لتنطلق دموعه من الحزن فقال: آآآه... لو تعلم كم أحببتك يا عمي...رحمة الله تغشاك، ثمَّ نظر للورقة بأعين تملؤها الدُّموع، واستأنف قراءة الرِّسالة التي كتب عليها : "لن أطيل عليك في الحديث، لقد علمتُ بأنَّ أبناء إخوتي الذين أحبهم حمدي، وعبد الصَّمد كانا يسرقان من مالي عن طريق بعض الموظفين في كل شهر، وما إن اكتشفنا أنا و المحامي أمر السَّرقة حتى أتَّخذنا الإجراءات المناسبة، وأبلغنا الشُّرطة، واعترف الموظفان اللذان تمَّ ضبطهم على أبناء إخوتي، لكنّي عفوتُ عنهم ،وعنْ الموظفين، وطردتهم من العمل، وللأسف علمتُ بأنَّهما يخططان لقتلي، وقتل المحامي، وخالد، وقد أبلغتهما بأنَّ هناك من يريد قتلهما، وأنْ يأخذا حذرهما جيدًا، لكن لم أستطعْ ذكر أسماء أبناء إخوتي، فتظاهرتُ بعدم المعرفة على أمل أن يتراجعا عمّا في رؤوسهما، فيبدو بأنّي جبان يا بني، لا أصدق ذلك، لقد كنتُ أنوي أنْ أورثهما مالي، ولقد حولتُ الإرث باسمك أنت، وإنْ كنتَ تقرأ رسالتي الآن، فأعلم بأنّي قد قُتلتُ، وبأنَّ حمدي، وعبد الصَّمد هم من قتلوني، وربّما يكونون قتلوا خالدًا، والمحامي سيف أيضًا .

وستجد فلاشة صغيرة في الظَّرف بها تسجيل وصلني بأصواتهما، وهم يتحدثان مع قاتل مأجور، لكنَّهم لم يحددوا كيف سيقتلوننا، خذْ بثأرنا يا بني فأنا لي قلب موجوع الآن وآمل ألا يحدث ذلك، وأن يهديهم الله قبل أنْ يتلاعب الشّيطان برؤوسهما .

فاستمع عادل، لتسجيل حمدي، وعبد الصَّمد، ونفس الصّوت الذي هدّد عادل سابقًا كان هو ذاته، هو القاتل المأجور، فكانوا يتحدّثون بشكل عام عن نيتهم للخلاص من العمّ علوان، ومن هم حول عادل، ثمَّ الخلاص منه بعد ذلك، ليحصلوا على أغلب التّركة بما فيها النّاب الأسود، إنْ وجد بالفعل .

كان من ضمن التّسجيلات التي حصل عليها عادل من خزانة سمر، نسخة نفس التي أرسلها العمّ علوان، وتسجيل لعفاف، وحمدي، وهما يتفقان كيف سيتمّ تسميم عادل، وتسجيل ثالث لعفاف، وعاصم، وهو ينصح أخته أن تضع لعادل كمية بسيطة جدًا، حتى لا تثار الشُّكوك حول موته.

هنا عدّل عادل طريقة جلوسه، فقد فهم سبب بكاء سمر، لقد كان والدها متورطًا أيضًا في محاولة قتله.

ليطرق خالد الباب، ويدخل عليه، ومعه الشّاي بالحليب المشهور في عدن بـ (الشّاهي الملبّن) فجلس بجانب عادل وقد لاحظ بأنّ عادل يمعن النّظر إليه .

- ماذا ؟
- لمَ لمْ تخبرني بأنَّ عمي حذَّرك من أنّك معرض للقتل ؟
- أوو... هل أخبرك في الرِّسالة ؟

هزّ عادل رأسه، وهو يقول : نعم.

- لمْ أعرف مِن مَن أحذر، كما أنّي لم أرغب في أن أشغل بالك.

فمـدّ عـادل يـده، وحـاول ارتشـاف الشّـاي السّـاخن، ثمَّ قـال وهـو ينظـر إلى ساعة الحائط :

- اشـرب الشّـاي سـريعًا، سـنمرّ علـى المحـامي، ونـذهب معًـا إلى مديريـة الأمـن للإبلاغ عن نصف عائلة الزّواحف .

فالتفت له خالد بحماس، وهو يقول : أوه...

يبدوا بأنَّ هناك أخبار ساخنة كالشّاي .

فالتفتَ له عادل، وقال وهو ممسكًا بالكوب :

- أسـخن مـن الشَّـاي، أسـرع، وسـنتكلّم في السَّـيارة، ولكـنْ علـيَّ أنْ أقـوم بشـيء مـا سـريعًا، وسـأعود بظـرف ربـع سـاعة، لألقـاك عنـد السّـيارة .

رسالة اعتذار

بعد أن ذهب عادل، وخالد، والمحامي سيف إلى مديرية الأمن، خرج عادل بسرعة دون أنْ يلاحظوا غيابه، وأتّصل بخالد، لكنْ بعد أن صعد سيارته، وطار بها حتى لا يلحق به فيكفيه تعبًا، وحراسة لعادل .

انطلق عادل إلى مدينة المعلّا بعد أنْ لاحظ أنّ العم مختار لا يردّ على مكالماته أبدًا .

في هذه الأثناء كانتْ سمر تجلس في غرفتها، وقد بدا عليها القلق ممّا قد يفعله عادل، ففتحتْ دولابَها، ووجدتْ رسالة، وعليها زهرة باهتة متآكلة، وقد بدا عليها مرور سنين طويلة، أمسكتها برفق، وكأنّها ستتفتت بيدها، وقد عقدتْ حاجبيها، ثمّ فتحتْ الرّسالة التي كتب عليها : "كنتُ أرجو أنْ أهديكِ هذه الزّهرة منذ سنين طويلة، لكنْ للأسف...

كنتُ منبوذًا، وسأظلّ منبوذًا إلى الأبد، لم أحلم في حياتي بأنْ أصل إلى درجة أن تعامليني جيدًا، بل وجدتك جيشًا مساندًا لي، ولولاكِ لما عشتُ أصلًا...

شكرًا لكِ...

أرجوكِ سامحيني...

لأنّي لأول مرّة سأطعنك في الظَّهر...

آسف على ما سأفعل، لا يمكنني أنْ أعاقب أحدًا، وأتغاضى عن آخر...

سامحيني... أنا آسف...آسف جدًا."

وباستطاعتك سماع أنفاسها وهي تلتقطها بثقل شديد، وكأنَّها تحاول سحب الهواء من حولها، لتنطلق من عينيها دموع بلا توقف، وبكتْ بحرقة شديدة .

عدل القدر

ذهب عادل إلى بيت العمّ مختار وظلّ يطرقُ بابه، فلمْ يرد عليه أحد، أصابه القلق، ففي هذا الوقت يكون في بيته، فقد كان ذلك في وقت الظَّهيرة .

نزل بسرعة، فطرق على باب جاره سعيد الذي يسكن تحت بيت العمّ مختار، ذلك الفتى السّاعي الذي تعود أنْ يعمل في مقهى قريب، خرج إليه بوجه متعب، فقد بدا أنَّه كان غارقًا في النَّوم بعد أنْ كان يعمل حتى وقت متأخر من الصَّباح في المقهى .

اعتذر له عادل مبررًا أنَّه قلق على العمّ مختار، لأنَّه ليس من عادته ألّا يجيب على مكالماته أبدًا.

فقال له سعيد: إنَّ والدته سمعتْ صوت ارتطام، فنادتْ على الجيران، ليجدوا العمّ مختار، وقد جاءته نوبة قلبيّة منذ الفجر حيث وجدوه مرميًا عند الباب، فأسعفوه إلى المشفى .

وباستطاعتك رؤية سعيد، وهو يغلق باب البيت، ويمسح عينيه بنعاس شديد، فنظرتْ إليه والدته، وهي تقول : من يا بني ؟

- إنّه عادل يسأل عن العمّ مختار، ويبدو بأنّه لا يعرف أنَّه طريح في المستشفى، فقفزتْ أمه، وقد توسّعتْ عيناه :
- وهل أخبرته في أي مشفى هو الآن ؟
- نعم يا أمي، وما في ذلك ؟

ثمّ وضع كفّيه على فمه، وهو ناظرًا إلى والدته، واستطرد : يا إلهي !

في ذلـك الحـين كانـتْ دوريـات الشَّـرطة قـد وصـلتْ؛ لتأخـذ عبـد الصَّـمد، وعاصـم مـن البيـت، وقـد شـرح الضّـابط لأهـل البيـت الموضـوع بمنتهـى الاختصـار، وقـد كـان الكـل في حالـة صـدمة، خاصـة عفيـف المسـكين الـذي أصـابته صـدمة شديدة عندما علم بأنَّ ابنه قد قتل أخوه !

أمـا عفـاف الـتي أصـابها الشَّـلل الكامـل، تمّ منعهـا مـن السّـفر، وظلّـتْ في البيـت مؤقتًـا، حـتى يـتم النَّظـر في أمرهـا؛ بسـبب تحايـل المحـامي، ودفـع مبلغًـا كبـيرًا مـن المـال، كغرامـة بسـبب حالتهـا الصِّـحية الـتي سـاءت كثـيرًا في الأيـام الماضـية؛ جـراء صـدمة وفـاة ابنهـا وأخيهـا، كمـا وقـد وافـق المجـني عليـه ألا وهـو عـادل علـى أنْ تظـلّ في البيت .

فما إن سمعتْ خبر إجرام ابنها، وقتله، لأخيها، حتى نزلتْ دموعها دون بكاء .

كان البيت في حالة عزاء أسوأ من العزاء نفسه .

التّفكك الأسري مرض صغير يكبر يومًا بعد يوم؛ ليأكل المجتمع، ويصيبه بحالة من حبِّ الذَّات قبل حب الغير، والوطن .

وحي

مفاجأة !!

دخل عادل إلى المستشفى بخطى حثيثة، وسأل موظفة الاستقبال بحماس، وقلق شديدين عن العمّ مختار ؟

فقالتْ، وهي تبحث في جهاز الكمبيوتر : مختار من ؟

- مختار مَن؟

مختار...آآآه .. مختار علي سالم

- لا...لا يوجد أحد بهذا الاسم .
- بلى...إنَّه رجل كبير، وقد أسعفوه فجر اليوم بسبب نوبة قلبيَّة .
- أهاا...

أتقصد العمّ عزّ الدّين ؟

لقد استقرّتْ حالته الآن.

- لا... لا... اسمه مختـ...، صمتَ قليلًا، وقد وقف شعر جسده .

- سيّدي لا يوجد أحد باسم مختار علي سالم أبدًا، و الرّجل الكبير الذي أُتى به بالأمس فجرًا جراء نوبة قلبية اسمه: عزّالدّين النّاصر .

تيبّس جسد عادل بالكامل، ولم يتحرك منه سوى بؤبؤ عينيه، فنظر جانبًا، وهو لا يرى سوى بعض الذِّكريات، فعاد بذاكرته للوراء، عندما أتاه السَّيد مختار، وهو مرميٌ على جانب طريق البريقة، حينما طُرد من بيت آل صابر عندما قال : الحمد لله أنك بخير يا ولدي .

تذكّر كلامه، ودموعه تنهمر، وهو يقول : أتعلم ؟

طوال الطّريق، وأنا أنظر يمينًا، ويسارًا، وكأنَّ قلبي كان يدلُّني عليك . ثُمَّ تذكَّر يوم جلسا عند سوق بانافع، عندما قال :

أتعلم يا بني ...؟

لقد كنتُ رجلًا سيئًا في شبابي، وقد ظلمتُ نفسي، ومن حولي . هنا ضرب عادل كفّه بجبينه، ثمَّ سمع موظفة الاستقبال، وهي تقول :

- هل أنت بخير يا سيّد ؟

فمشى دون أنْ يتكلّم، خرج نحو باب المستشفى برأس متبلّد، وجلس على درج الباب الرَّئيسي للمشفى، ووضع كفّيه على رأسه.

مـرّ حـوالي نصـف سـاعة، ليُفـتح بـاب غرفـة العـمّ مختـار، أو والـد عـادل عـزّ الدّين !

السَّيد عزّ الدّين النّاصر .

دخـل عليـه عـادل، فوجـده جالسًـا علـى السّـرير بقلـق، ومـا إن دخـل عـادل، حتى انفعـل بفرحـة ممزوجـة بصـدمة، لرؤيـة عـادل في حالـة يرثـى لهـا فقـد بـدا مصـابًا بكدمات متعدّدة على وجهه وجسده، كما أنّه كان يعرج من ألم إحدى ساقيه .

فمدّ ذراعيـه لعـادل بلهفـة، لـيرى نظـرة غريبـة في عيـني عـادل، لم يسـتطعْ فهمهـا فقال :

- تعال يا بني حتى أطمأن عليك .

فاقترب منه عادل ببطء، وهو يقول : لم تعاملني كالأطفال يا عمّ ؟

- أنا ؟

أنا أحبك يا بني .

وهـو يجلـس بـالقرب منـه علـى نفـس السّـرير، فوضـع يـده علـى كتـف عـادل، وهو يقول :

- الحمـد لله علـى سـلامتك يـا بـني، ثمَّ لاحـظ تأمـل غريـب علـى ملامـح عـادل، فحاول الهرب قائلًا :

- يا بني أنت أمانة كلفني بها صابر، وعليّ أنْ أهتم بأمرك .

- لماذا ؟

- لماذا لماذا ؟

- لماذا تركتَ أمي، ولماذا صمتَ سنينًا طويلة دون أن تخبرني بأنَّك أبي ؟

وما إن سمع أسئلة عادل، حتى توسّعتْ عيناه، وهو ينظر إليه، لتبدأ شفتاه بالاهتزاز بلا وعي، وليهرب ببصره بعيدًا، فرجع إلى الخلف، واضعًا كفّيه النّحيفين على السَّرير وهو ينظر للأسفل، فينظر تارةً ناحية اليمين، وتارة ناحية اليسار، وكأنَّه يبحث عن حفرة، ليدخل فيها، ويدفن نفسه بها، وقد بدأ فمه يجفّ، ويزداد ارتجافًا، ثمَّ سقطتْ دموعه فبدا كالطِّفل المذنب، وهو يعضعض شفته السّفُلى، ليسحبه عادل، ويحتضنه بقوة، وكأنَّه يؤنِّب نفسه على سؤاله، فقال :

- كيف لا تخبرني بأنَّك أبي، هل كنت ستموت دون أنْ أعلم بذلك ؟

فبكى العمّ مختار، وانتحب كطفل صغير، وهو يقول :

- سامحني يا ولدي أرجوك .

أنا أدعو من الله ليل نهار أن تسامحاني أنتَ وأمك .

لقد كنتُ ظالمِا لكما، لكنّي لقيتُ نصيبي من كثرة الأمراض، عندما عشتُ لوحدي، ولم أجد من يهتم بي في مرضي، ولطالما وقعتُ وأغمي عليَّ وصحوتُ

وأنا لوحدي، وعقابي الثّاني هو أنّ ابني لا يعرف عنّي سوى بأنّي مجرد صديق لجَدّه صابر رحمه الله الذي ساعدني في التّقرب إليك .

فمسح عادل دموعه، وهو يقول له :

انسَ فأنا لنْ أتركك لوحدك ثانية، وسنعيش معًا يا أبي، فاحتضنه العمّ عزّ الدِّين بفرحة عارمة، مزجتْ ضحكات ودموع، وهو يقول : اللّهم لكَ الحمد.

الحمد لله أنّي أصبتُ بذبحة؛ لأرتاح بمعرفتك أمري يا بني .

فصرخ عادل : ما هذا الكلام ؟

ردّ عليه، وقد رفع كفّيه المرتجفتين في الهواء وهو يقول : رحمة الله على من رباك، لم أتوقع ردّك هذا يا بني .

الأب

هو حصنك المنيع عند الشَّدائد ومظلتك عند المطر ومعطفك عند البرد هو رجل صاحب قلبٍ كبيرٍ ومحب تركيبة خلقها الله؛ لتكون حائطًا قويًا في وجه قسوة الحياة.

وحي

الناب الأسود

بعد حوالي خمسة أعوام منذ أنْ ماتَ الحاج صابر، تمّ تحويل بيت آل صابر إلى قسمين: مسجد كبير، ودار للعجزة، والمسنين.

وكانت ابنة صابر البكر عفاف قد توفتْ بعد أشهر من مرض الشلّل إثر صدمتها بابنها القاتل الذي قتلته هي الأخرى بالغلط.

وبالنسبة لابنتها لينا، فقد قارب عادل بينها، وبين خالد ليطمئن عليها بعد موت أخيها، وأمها، فقد كان يعلم بأنَّها ستعيش بأمان معه؛ لطيب أخلاقه، كما أنَّه كان يعلم بأنَّ خالدًا معجبٌ بها كثيرًا.

أما عفيف فقد باع بيته، واشترى بيتًا آخر له هو، وزوجته وابنته؛ ليربيّها جيدًا بعيدًا عن الذِّكريات السِّيئة، فباع معرض السَّيارات، وبنى مدرسة؛ لتعليم القرآن الكريم، وسمّاها مدرسة صابر لتعليم القرآن الكريم.

كما تمّ اتهام عبد الصَّمد بن عفيف بجريمة قتل عمه علوان صابر، ومحاولة قتل عادل عزّالدِّين، والحكم عليه بالسِّجن المؤبّد. واتهم عاصم صابر بتهمة محاولة قتل عادل عزّالدِّين والحكم عليه لمدة سبع سنوات.

وباستطاعتك رؤية عادل، وهو يجلس على شرفة فيلا جميلة، وصغيرة بناها بالقرب من البحر، وبنفس المنطقة، وهو يفكر فيما حدث للكل، فقد كان لابدّ من الخروج من بيت آل صابر بعد ما حدث للجميع هناك من قتل، وسجن، ومشاكل، وأحزان، ولم يكنْ يشفع كل ذلك إلا بتحويل البيت إلى مسجد ودار للعجزة.

لتحطّ على كتفيه كفّين لامرأة باهتة البياض بشعرها الأسود الطّويل، وهي تضع أحمر الشّفاه الغامق، كعادتها، فاستدارتْ لتجلس بجانبه على الأريكة، فابتسم، وهو يتساءل: أين علوان؟

- يلعب مع العمّ عزّ الدِّين في الصَّالة .

فوضعت رأسها على كتفه، وقد مدّ يده في جيبه؛ ليخرج منه كيس مخمليّ صغير، أخرج منه قطعة لامعة بطول الإصبع، لكنَّها رفيعة، كان شكلها يميل إلى الطُّول، رفعها في الهواء وأغلق إحدى عينيه كأنَّه يحاول النَّظر من خلالها ..

- ما رأيك يا سمر؟ فالتفتتْ، وعدلتْ جلستها بحماس، ثُمَّ أمسكتْ بها، وقد لمعتْ عيناها، وهي تقول :
- ما هذا؟

يا لها من قطعة كريستال جميلة، ورفعتها في السَّماء، وهي تتعجب:

يا إلهي!

كم تلمع وكم هي كبيرة!

أتعلم؟

جمالها في سوادها.... آآآآه!

- ماذا حدث ؟
- إنَّها حادة جدًا من الأسفل، لقد أصابتْ إصبعي، فأخذها بعد أنْ اطمأن على يدها.
- أتعلمين ما هذه ؟
- ماذا ؟
- إنَّه النَّاب الأسود.

قفزتْ، ثُمَّ جلستْ ثانية، وهي تشهق وتقول: لاااا ؟! فابتسم لها، وهو يقول : إنَّها ماسة تساوي الكثير من ملايين الدُّولارات، وليستْ قطعة كريستال .

فاتكأتْ على الأريكة، وهي تقول : لهذا كان الجميع مجانين بأمر النَّاب الأسود، ثُمَّ انفعلت، وهي تقول :

- ولِمَ سمي بالنَّاب الأسود، وليس الماسة السّوداء مثلًا؟ فردّ عليها، وهو يضحك:
- وها هي زوجتي المحقّقة قد بدأتْ بالأسئلة التي لن تنتهي أبدًا.
- عادل...أرجوك ردّ عليّ .

ردّ بابتسامة : لكي لا يجنّ الجميع، وراءها؛ لأنّه لو عُرف بأنَّ الحاج صابر يمتلك ماسة كبيرة، لما سلم من المراقبات والسّرقة من أبنائه والنّاس، والنَّاب فيه غموض ،فلمْ يُعرف ما هو بالضّبط، إلا أنَّه شيء ثمين .

- أمم...ما أغرب تفكيرك يا جَدّي!
- لم يكنْ جَدّك من سماه، بل أعتقد بأنَّه أبوه أو جَدّه، المهم بأنِّي أنوي بيعها الآن.
- لمَ ؟
- لأنَّها نقمة، وأنا لا أريد أنْ يتصارع أولادي في المستقبل عليها .
- أولًا لديك طفل واحد فقط، ربّيه جيدًا، ولو كتب الله لنا غيره، لا تخفْ، سأربيهم بالسّوط والعصا إن رأيتُ فيهم أحدًا سيء ، ولن أتركك كجدتي التي هربتْ بأولادها من جَدّي، كما، وأنَّ عمتي وأعمامي دخل فيهم الحسد بسبب وجودك، حتى أنا نفسي كنتُ أكرهك أيضًا معهم في بادئ الأمر.
- وحتى لو حاولتُ تربيتهم جيدًا، أنا لا أعلم كيف سيكونون في المستقبل، سأبيعه لمستر جورج غدًا.

- ومن يكون مستر جورج هذا ؟
- إنَّه مشترٍ إنجليزي، صديق لجدّي، أوصاني أن أبيعه له، إنْ نويتُ بيعه.
- وماذا ستفعل بالأموال ؟

فوقف بحماس، وفتح ذراعيه، وهو يتأمّل الفضاء، وكأنَّه يتخيَل ما يراه قائلًا:

سأقوم بمشاريع استثماريَّة شخصيَّة وخيريَّة.

- وما الشَّخصيَّة ؟
- سأبني مصنع عدن لصناعة الحقائب، والأحذية الجلديَّة، وعدّة مصانع نفتقر إليها في المدينة .
- والخيريَّة ؟
- سأبني مستشفىً عامًا كبيرًا، بامتيازات كبيرة، وبأسعار رخيصة لعلاج النَّاس، وليس لسرقتهم .

فرمقته بطرف عينها، وهي تقول:

- أتلمّح إلى مستوصف أبي؟
- وما شأني بمستوصف أبيكِ، أنا أتكلّم بشكل عام، ثُمَّ استطرد بالحديث، وقد أمسك بيدها قائلًا: وسأطلب لكِ قطعة صغيرة مثلها تمامًا، ونضعها في خاتم .
- لا، بدلًا عنها اشترِ لي بدلة كبيرة، أو بدلتين من الذَّهب.

فنظر إليها ببلاهة، وهو يقول: لديك الكثير من الذَّهب، يا إلهي من طمع النِّساء !

قفزتْ من مكانها، وهي تقول:

- أوه... نسيتْ الكعكة في الفرن.

فالتفت للوراء، وناداها، وهي تركض للدّاخل:

- عن أي كعكة تتحدثين، هل لدينا مناسبة؟

فصرخ العمّ عزّالدّين من الدَّاخل، وهو يقول :

هل نسيتَ بأنَّ اليوم هو أول يوم تكمل فيه سارة ابنه لينا وخالد عامها الأول؟ فركض علوان في البيت، وهو يصرخ: سارة...سارة... سارة .

فأمسك عادل جبينه، وهو يصرخ : أخ، لقد نسيتُ شراء شيء لعيد ميلادها .

فصرختْ سمر هي الأخرى من الدَّاخل :

- لا عليك يا عزيزي، لقد اشتريتُ هدية ثمينة، وسأقدمها باسم العائلة.

ثم اتصلتْ بخديجة؛ لمساعدتها في تحضير الطَّعام قبل أن يذهب الكل لبيت خالد، فقد كان بيت العمّ عفيف الجديد يقع بالقرب من بيوت عادل، وخالد.

النّهاية

رنّ جرس بيت عادل، وهم يتجهزون للخروج، ففتح الباب، ليجد خالد، فقال:

- ما هذا؟

نحن في طريقنا إليكم!

- أعلم، لكنّك تأخرت، فقلتُ سآتي؛ لاستعجالكم، ومساعدتك في حمل الكعك، والبطاطا، فقد أسرّت خديجة لينا بأنَّ سمر طبخت أشياء كثيرة. فابتسم عادل، وقال:

ما هذا؟

يا لك من شحات!!

فضحك خالد، وهو يقول: بعض ما عندكم يا رفيق. فنظرا لولد صغير كان يجلس جانبًا بملابس مهترئة، فقال عادل: من هذا الفتى؟ يبدو شكله مألوفًا!

فقال خالد : إنّه ابن جارنا، ذلك الرَّجل الذي كان يبيع الخمير، والشَّاي في الصباح في كشكه الصَّغير .

- ها...تذكرته .
- لقد مات منذ أيام، وهذا الولد المسكين يتناول طعامه من هذا الجار وذاك؛ لذا ما رأيك أن ندخله إلى دار العجزة، بشكل مؤقت، حتى نرى ما سنفعل معه.

فذهب نحو الطِّفل الصَّغير، ونزل على إحدى ركبتيه، وهو يقول : ما اسمك يا صغيري ؟

فقال : صابر !

فرفع عادل حاجبيه، بدهشة شديدة، ثُمَّ ابتسم، وقد دمعتْ عيناه، فمدَّ ذراعيه للولد، ثمَّ قال: تعال...تعال يا بني.

كان ذلك أثناء خروج العمّ عزّ الدّين، وخديجة، وسمر من البيت، وهي تحمل ابنها الصَّغير.

فاحتضن عادل الولد بشدّة، ونظر للأسفل، وقد تاه تفكيره، ثُمَّ رفع بصره نحو سمر، وقد بدا على وجهها الاستغراب.

فقال متبسمًا: ألم أقل لكِ بأنِّي يجب أنْ أبيعه سريعًا.

الفهرس

إهداء: 4
يخلق من ظهر العالم فاسد... 11
عقدة الشَّرط عادل.. 19
الثَّعلب العجوز 24
المخبأ السري 38
عندما يقع الثَّور 50
دعني أخبرك بنصيحة ما... 59
لذة الانتقام.. 60
مخططات شيطانيَّة 74
قناع القطة... 79
إن مسحتَ على بعض الأفاعي، فلا تنتظر منهم وفاء الكلاب 88
عاشق أفعى 94
الفاجعة.. 99
العبد المتكبر... 103
هدوء ما قبل الإعصار.. 114
رياح ما قبل الإعصار... 121
إعصار من الحقائق... 129
ليلة بلا قمر.. 140

ردّ الدَّين..146
رسالة اعتذار 156
عدل القدر..158
مفاجأة !! 162
النّاب الأسود 168
النِّهاية...174
الفهرس..176

تم بحمد الله ..

وحي صالح مشهور